الإسلام لعصرنا

تأليف الأستاذ الدكتور

جعفر شيخ إدريس

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

ح مجلة البيان ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إدريس، جعفر شيخ

الإسلام لعصرنا. - الرياض

١٥٢ ص؛ ١٧ X ٢٤

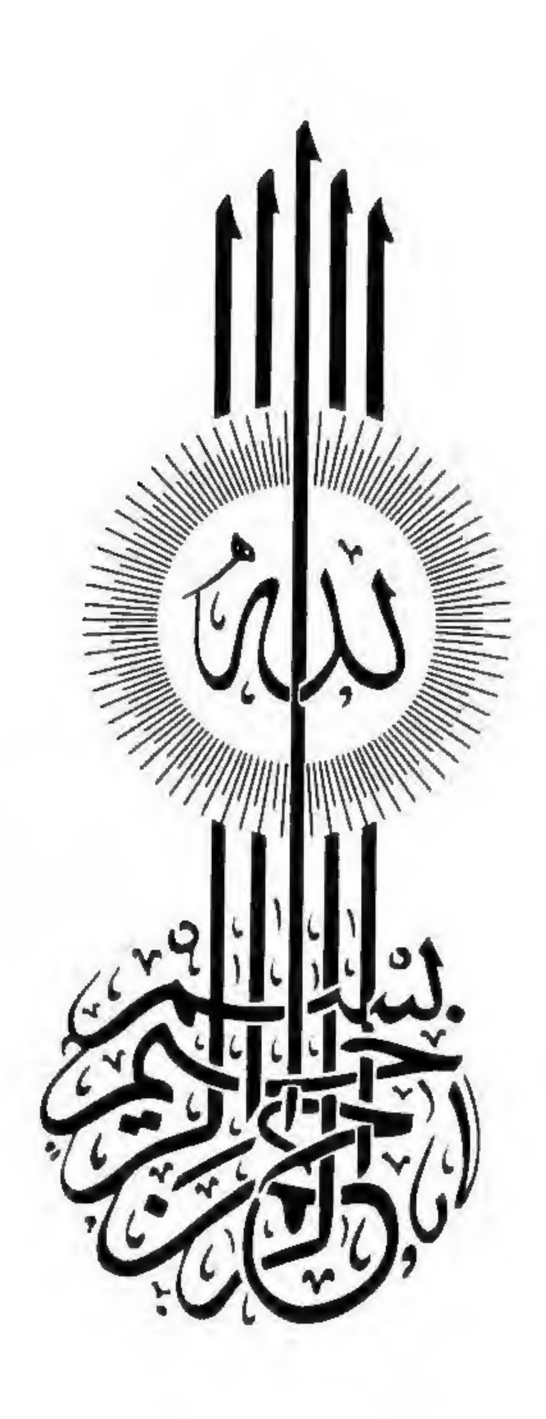
ردمك: ١-١-٩٣٦٥-٩٩٦٠

١ - الإسلام - دفع مطاعن. أ - العنوان

ديوي ٢١٦ ٢٢/٤٢٧٦

رقم الإيداع ٤٢٧٦ / ٢٢

ردمك ١-١-٩٣٦٥-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

للناس إزاء قضايا عصرهم ثلاثة مواقف: طرفان ووسط. فطرف يكاد يغفل هذه القضايا إغفالاً كاملاً ويبدو وكأنه يعيش خارج عصره في لغته وقراءاته واهتماماته، لكن من هؤلاء علماء فضلاء يؤدون للأمة خدمة كبيرة؛ إذ يزودونها بالعلم الأساس الذي هو سلاحها في مواجهة مشكلات عصرها. وطرف يغلو في الانغماس في عصره انغماساً عميقاً؛ فيتبنى كثيراً من معتقداته وقيمه، بل وأهوائه؛ فلا يكاد يرى حقاً ولا عدلاً ولا مناسباً إلا ما شاع فيه؛ فإما أن يتولى عن دينه وتراثه توليّاً كاملاً، وإما أن ينتسب إليه انتساباً يكاد يكون اسمياً؛ فيحاول أن يطوع كثيراً منه لما هو شائع في عصره تطويعاً يضطره لتحريف الكلم عن مواضعه.

وأما أهل الوسط فهم أولئك الذين لا يرتابون في أن كل ما أخبر به الإسلام فهو الحق، وكل ما أمر به فهو العدل الذي يصلح به الناس في كل زمان ومكان. لكنهم يدركون أن حقائق الدين المنزل من السماء إنما تكون ديناً واقعاً في دنيانا الأرضية حين يتمثلها - في معتقداتهم وعباداتهم وخلقهم ومعاملاتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية - بشر يعيشون في ظروف جغرافية وتاريخية معينة؛ تَحْدُث لهؤلاء الناس بسبب هذه الظروف المختلفة قضايا فكرية ومشكلات عملية تتطلب منهم بذل الجهد في إيجاد الحلول الإسلامية لها، ونقد ما يخالفها نقداً علمياً عقلانياً نصياً؛ بلغة يفهمها أبناء العصر ويتأثرون بها.

وفي عالمنا الإسلامي بحمد الله ـ تعالى ـ دعاة كثر ينتمون إلى أهل الوسط هؤلاء على درجات متفاوتة، وقد حاولت جهدي أن أكون من أهل هذه المدرسة الوسطية فيما أعالج من قضايا وما ألتزم من منهج. لكن الانتماء إلى مدرسة أهل الحق لا يعصم من الوقوع في الخطأ؛ فإن يكن في هذه المقالات من حق فهو من فضل الله، وإن يكن فيها من باطل فهو مني ومن الشيطان. فأنا لله شاكر، وبه من نفسي ومن الشيطان عائذ.

والشكر بعد الله ـ تعالى ـ للإخوة القائمين على مجلة البيان، الشكر لهم على تشجيعهم وملاحقتهم التي كانت بعد توفيق الله ـ تعالى ـ السبب الأساس في الاستمرار في الكتابة، وكنت أظن أن هذا النفور من الكتابة عيباً خاصاً بي، ثم وجدته أمراً يشترك فيه كثير من السودانيين، عبَّر عنه أحسن تعبير الأستاذ الطيب صالح الأديب السوداني الذائع الصيت؛ إذ قال إنه لا يكتب إلا إذا بلغ السيل الزبى. فالشكر لمجلة البيان التي بلغت بسيلنا الزبى، ومن الله نستمد العون، ومنه ـ سبحانه ـ نطلب السداد.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

أ. د. جعفر شيخ إدريس

١٣ شعبان ١٤٢٢هـ

٢٩ أكتوبر ٢٠٠١م

(١)
الإسلام لعصرنا.. لماذا وكيف؟

(البيان ١٣٧ ـ محرم ١٤٢٠هـ ـ مايو ١٩٩٩م)

الإسلام كما أنزله الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ محمد ﷺ ـ ومن غير تحريف ولا تبديل ـ هو الدين الذي رضيه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ للناس أجمعين في كل مكان وكل عصر منذ مبعث رسوله الأمين وإلىٰ أن يقوم الناس لرب العالمين.

فالإسلام لعصرنا كما كان للعصور قبلنا، لكن إذا كانت نصوص الشرع لا تتغير ولا تتبدل؛ فإن أحوال الناس تتغير وتتبدل؛ فماذا يفعلون؟

يقول المتذبذبون: دعوا النصوص كما هي؛ لكن أعيدوا تفسيرها وأعطوها من المعاني ما يتناسب مع ثقافة عصركم كما أعطاها من سبقكم ما يتناسب مع ثقافة عصره؛ فإن النصوص وحي إلهي لكن فهمها جهد بشري. النصوص مطلقة لكن فهمها نسبي.

يقول الثابتون علىٰ الحق: لكن نصوص القرآن نزلت بلغة عربية ذات معانٍ محددة يعقلها العارفون بهذه اللغة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ثم جاءت السنة لتزيد المعاني اللغوية بياناً، ثم إن أصحاب رسول الله ﷺ فسروا هذه النصوص بحسب ما فهموا من لغة القرآن والسنة التي كانت لغتهم، وبحسب ما سمعوا من رسول الله ﷺ، وبحسب ما شاهدوا من المناسبات التي نزلت بسببها الآيات، والأحوال التي ذكرت فيها الأحاديث، ثم جاءت الأجيال تلو الأجيال من أئمة المسلمين وعلمائهم لتَفْهم من نصوص الكتاب والسنة هذا الفهم نفسه كما تدل عليه مؤلفاتهم؛ فالقول بأنهم فسروا النصوص بحسب ثقافة عصورهم إنما هو مجرد وهْم تبطله الحقائق التاريخية.

يقول المتذبذب: أتعني أنهم لم يختلفوا؟

يقول الثابت: لم يختلفوا في المعاني الأساسية للنصوص إلا اختلافات يسيرة، لكن اختلفوا فيما يمكن أن يستنتج من النص - مثلاً -، أو في المسائل الاجتهادية التي لا نصوص فيها، لكن المهم أن اختلافهم لم يكن بسبب اختلاف ثقافات عصورهم كما تدعي، وإنما كانت اختلافات فردية حتى في داخل العصر الواحد، وكانت اختلافات بين من التزموا بذلك المنهج الصحيح الذي بيَّنتُه لك بإيجاز وبين الذين لم يلتزموا منهجاً علمياً؛ وإنما أخذوا يفسرون النصوص بحسب أهوائهم ورغباتهم.

- أتعني أن لتفسير نصوص الكتاب والسنة منهجاً علمياً؟

- بل أعني أن لتفسير النصوص كلها سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية مناهج علمية.

- كيف؟

- أظنك تتكلم الإنجليزية.

- نعم.

- إذا قرأت قصيدة من قصائد شكسبير مثلاً، فكيف تفهمها؟

- أرجع إلى الكتب التي تولتْ شرحها، وبينتْ ما قصده شكسبير منها.

- أتعني أنك لا تفهمها بحسب ثقافة عصرك أو ثقافة بلدك العربي؟

- لا؛ بل لأنني أريد أن أعرف ما قصده شكسبير من كلماته.

- أتعني أنك تعطي كلماته المعاني التي قصدها والتي كانت شائعة في عصره حتى لو كانت تلك المعاني مخالفة للمعاني السائدة الآن في اللغة الإنجليزية؟

- لا شك في ذلك؛ لأن قصدي أن أعرف ما قال شكسبير، فإذا أعطيت كلماته المعاني السائدة الآن فإني أكون قد قوَّلته ما لم يقل.

- هل تفعل الشيء نفسه بالنسبة لنص من نصوص أرسطو - مثلاً - إذا كنت تحاول أن تكون مختصاً بفلسفته؟ أعني: هل تحاول أن تدرس لغته التي كتب بها فلسفته؟

- أجل، وأحاول أن لا أخلط بينها وبين اللغة اليونانية الحديثة؛ لأن قصدي أن أفهم ما قال أرسطو.

- هل تكتفي في فهم نصوصه إذن بدراستك للغة اليونانية التي كتب بها، أم أن هنالك وسائل أخرىٰ تعينك علىٰ فهم كلامه؟

- نعم هنالك وسائل أخرىٰ منها: أن أدرس كيف فهمه معاصروه؛ لأنهم أدرىٰ به، ومنها: الاستعانة بالخبراء الذين سبقوني.

- ما أظنك إلا متبعاً منهجك هذا نفسه في دراستك لشاعر جاهلي كامرئ القيس.

- بلىٰ؛ فأنا لا أعرف لهذا المنهج بديلاً في دراسة النصوص البشرية.

- هذا المنهج الذي اتبعته في دراستك لما أسميته بالنصوص البشرية هو المنهج العلمي الذي نريد منك اتباعه في دراستك للنصوص الإسلامية. نريد أن يكون همك هو أن تفهم مراد الله ومراد رسوله بقدر المستطاع، وأن تكون أميناً في ذلك؛ لا تُقوِّل الله أو رسوله ما لم يقولا، وأن تقرر معنىٰ نصوصهما كما هي حتىٰ لو رأيتها مخالفة لما هو سائد في عصرك.

- لكن هنالك فوارق مهمة - أراك قد أغفلتها - بين النصوص البشرية والنصوص الإلهية.

ـ ما هي؟

ـ منها: أنني أستطيع أن أفهم مراد البشر؛ لأنهم مخلوقون محدودون يخاطبونني بلغة محدودة، أما الله ـ تعالىٰ ـ فمطلق؛ فلا يمكن أن تسع اللغة المحدودة معانيه المطلقة؛ لذلك كان من حق كل إنسان أن يفسرها بلغته المحدودة حتىٰ تتسع معانيها فتقترب من المطلق!!

ـ دعك يا أخي من الكلام الغامض عن تفسير المطلق والمحدود؛ فإنها ألفاظ لا طائل تحتها؛ واللهُ ـ تعالىٰ ـ لم يسمِّ نفسه ولا سماه رسوله بالمطلق ولا وصفه بذلك. إن خلاصة ما تريد أن تنتهي إليه هو أن البشر حين يتكلمون باللغة العربية يكون لكلامهم معنىً محدد يمكن معرفته بطريقة علمية، وأما إذا خاطَبَنَا اللهُ بهذه اللغة فإنه لا يكون لكلامه معنىً يمكن معرفته بطريقة علمية! ألا ترىٰ أنك جعلت الله ـ تعالىٰ ـ عاجزاً عما جعلت البشر قادرين عليه؟ كيف يستطيع البشر حين يخاطبوننا باللغة العربية أن يوصلوا معانيهم التي قصدوها إلينا ولا يستطيع رب البشر أن يفعل ذلك، وقد قال إنه إنما خاطبنا بهذه اللغة لنفهم عنه ما يقول؟

ـ هذا بيان معقول؛ لكنَّ هنالك فارقاً آخر هو أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإذا أعطينا نصوصه المعاني ذاتها التي أعطاها إياها الصحابة ـ مثلاً ـ، فإنا نكون قد حصرناها؛ وبذلك حصرنا الإسلام في زمان معين ومكان معين!

ـ فما البديل إذن؟

ـ البديل هو كما قلت لك: أن يفسر كل أهل عصر تلك النصوص بما يتناسب مع ثقافة عصرهم.

ـ حتىٰ لو كانت هذه التفاسير متضاربة متناقضة؟

ـ نعم؛ لأن فهم النصوص الإلهية هو ـ كما قلت لك ـ نسبي؛ فما يفهمه أهل

كل عصر صحيح بالنسبة لهم حتىٰ لو كان غير صحيح بالنسبة لغيرهم.

ـ هل هذا هو ما فهمته من مقولة: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان؟

ـ أجل، وما أراك قادراً علىٰ الإتيان بفهم غيره أو أحسن منه.

ـ إذا كانت صلاحية الكلام لكل زمان ومكان تعني أن تُغيَّر معانيه لتناسب أهواء الناس في كل زمان ومكان، فإن كل كلام حتىٰ لو كان لأبلد الناس يمكن أن تكون له هذه الميزة.

ـ كيف؟

ـ فما علىٰ صاحبه إلا أن يقول: هذا ما أراه اليوم وفي مكاني هذا، لكنني أجيز لكل من يؤمن بمذهبي هذا وينتمي إليه أن يغير فيه ما شاء بحسب ما يعن له في زمانه ومكانه. فهل يعتقد إنسان يقدر الله حق قدره أن كلامه سبحانه يمكن أن يخضع لمثل هذا التفسير العابث؟

ـ فما معنىٰ كون الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان إذن؟

ـ معناه أنه كما أنزله الله ـ ومن غير تحريف ولا تبديل ـ صالح لكل من يريد الهداية من الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان. والسر في هذا أنه تنزيل من حكيم عليم، علم ما هو صالح لعباده بما هم به بشر، لا بما هم به أهل هذا العصر أو ذاك، ولا بما هم به عرب أو عجم، أو أصحاب زراعة أو صناعة، أو في شرق الأرض أو غربها، أو غير ذلك من الاختلافات التي لا تؤثر في بشريتهم، فأنزل عليه كتاباً غير مقيد بشيء من هذا كله.

ـ إذن فما معنىٰ عبارتك: «الإسلام لعصرنا»؟

ـ معناها أنه إذا كانت نصوص الكتاب والسنة لا تتغير ولا تتبدل فإن أحوال

الناس تتبدل وتتغير، فيجدُّ لهم من المشكلات اللغوية والفكرية، والعملية، ما يحتاجون معه إلى أن يُعانوا على فهم دينهم الفهم الصحيح، وأن تزداد ثقتهم فيه وإيمانهم به، وذلك يكون:

بتفسير حقائقه الثابتة بلغة جديدة يفهمونها، إن كانوا عرباً، أو بترجمتها إلى لغاتهم إن لم يكونوا عرباً، وبتقويم ما يجدُّ من أفكار، والرد على ما يُثار من شبهات، وبإيجاد الحلول الإسلامية لما يجدُّ من مشكلات عملية، وبالاستفادة من الكشوف العلمية الموافقة للنصوص الإسلامية في تثبيت الإيمان والدعوة إلى الإسلام، إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تتأتى إلا بإمعان النظر في النصوص وتدبرها. إن النصوص محدودة لكن ما يُستنتج منها غير محدود، كيف لا والقرآن كتاب لا تنقضي عجائبه؟!

(٢)
السلام وانتشار الإسلام

(البيان ١٣٨ ـ صفر ١٤٢٠هـ ـ يونيو ١٩٩٩م)

وقَّع رسول الله ﷺ اتفاقية صلح الحديبية مع قريش بمكة ثم قفل راجعاً مع أصحابه إلى المدينة، وبينما هم في الطريق إذ نزلت عليه ﷺ سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

سأله رجل مستغرباً: يا رسول الله، أوَ فتح هو؟

فأجابه ﷺ مؤكداً: إي، والذي نفسي بيده إنه لفتح[١].

لماذا سأل الرجل (وهو عمر) هذا السؤال مستغرباً؟

وأيُّ فتح كان فتح الحديبية؟

وهل فيه من عبرة لنا في أيامنا هذه؟

أما استغراب عمر فلأن الصلح في ظاهره لم يكن في مصلحة المسلمين؛ فهم قد مُنعوا من أداء العمرة، ولم يقاتلوا، وكان في الصلح بنود ظنها بعض الصحابة مجحفة بهم؛ منها: «على أنه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا»[٢].

وأما نوع الفتح فيفسره قول الزهري: فما فُتِحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس. ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلُّهم بعضهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا

(١) فتح الباري، المغازي، الحديبية/ج٧، ص٥٥٠، ط دار السلام.
(٢) فتح الباري، الشروط، الشروط في الجهاد، ج٥، ص ٤٢١.

في الحديث والمنازعة، ولم يُكلِّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[١].

قال ابن حجر مؤيداً الزهري: فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام، جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية[٢].

وقال ابن هشام أيضاً مؤيداً للزهري: ويدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف[٣].

نستخلص من كلام هؤلاء العلماء الثلاثة أن الفتح تمثل أساساً في كثرة عدد من دخلوا في الإسلام بسبب الصلح.

ونستخلص منه - أيضاً - أن السبب في ذلك كان السلام الذي حل محل الحرب والقتال، وأن هذا الجو السلمي أدى إلى أن يختلط الناس بعضهم ببعض من غير نكير، وإلى أن يُسمع المسلمون المشركين دعوة الإسلام، وأن يجادلوهم ويناظروهم في جو آمن، وأن هذه الدعوة السلمية هي التي كانت سبباً في إقناع كل العقلاء بالدخول في الإسلام.

ما مناسبة هذا لواقعنا؟

مناسبته أن الدعاة إذا وجدوا أنفسهم في حال كهذه الحال فينبغي عليهم أن يحافظوا عليها، بل ينبغي عليهم أن يسعوا لأن تكون حالهم مع من يدعوهم مثل هذه الحال، وأن يبينوا لهم بإخلاص أن القتال والعنف ليس هدفاً من أهدافهم،

---

(١) فتح الباري، المغازي، الحديبية، ج٧، ص ٥٥٠.
(٢) فتح الباري، الشروط، الشروط في الجهاد، ج٥، ص ٤٢٧.
(٣) فتح الباري، المغازي، الحديبية، ج٧، ص ٥٥٠.

بل إن كل ما يريدونه هو أن يُعْطَوْا حرية الدعوة إلى دين يرونه حقاً ويرون فيه مصلحة للمدعوين دينية ودنيوية. وهم حين يفعلون هذا سيكونون مقتفين سنة نبيهم ﷺ، انظر إلى الكلمات الرقيقة الحازمة التي خاطب بها قريشاً، والتي كانت من أسباب عقد الهدنة، قال لهم ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم؛ فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويخلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهرْ فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره»[١].

يبدو لي أن الحال في كثير من البلاد الديمقراطية ـ ولا سيما الغربية ـ شبيه إلى حد كبير بحال المسلمين مع المشركين في سَنَتَي الهدنة، فهي حال يستطيع فيها الدعاة الاختلاط بغير المسلمين، ودعوتهم ومجادلتهم؛ بل قد ثبت بالتجربة في بلد كالولايات المتحدة أن عدد الداخلين في الإسلام في ازدياد مطرد بسبب هذا الجو السلمي.

وعلى الدعاة في تلك البلاد إذن أن يحافظوا على هذا الجو السلمي حتى لو كانوا في مثل قوة النبي ﷺ وأصحابه حين عقدوا صلح الحديبية، فكيف وهم في حال ضعف؟

إن أكثر ما يحرص عليه أعداء الإسلام في الغرب هو أن يصوروا المسلمين على أنهم وحوش إرهابية لا غاية لها إلا تحطيم الحضارة الغربية، وقد استغلوا وسائل الإعلام لإبراز هذه الصورة للمسلمين ونجحوا في ذلك إلى حد ما. ولا يفرح هؤلاء بشيء فرحهم بتصريحات يطلقها إنسان أهوج يدعو فيها إلى

---

(١) البخاري، الشروط، الشروط في الجهاد.

العنف أو القتال في داخل تلك البلاد؛ لأنها تصدق دعواهم تلك، وتساعد على تنفير الناس من الدعاة المسلمين؛ لأنهم يعلمون أن الذي يرئ فيك خطراً على نفسه وأهله لن يستمع إليك ولن يثق فيما تقول.

كنت في الولايات المتحدة أيام حادثة (أوكلاهوما) ولمست الذعر الذي عاشه المسلمون ـ ولا سيما رواد المساجد منهم حين طلع بعض أولئك الأعداء المُسَمَّوْن بالخبراء ليقول في بعض وسائل الإعلام: إن الفِعْلَةَ فعلة مسلمين. ورأيت كيف تنفسوا الصعداء حين تبين أن الجناة ليسوا من المسلمين.

وهذا أمر طبعي؛ فإن الأقلية المسلمة بين الكثرة الكافرة الحاكمة مستضعفة؛ فلا يناسبها أن تقاتلهم وهي تحت سلطانهم، وربما كان هذا هو السبب في نهي المسلمين عن مقاتلة الكفار حين كانوا بمكة. لقد أُمروا آنذاك بأن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة، فلما هاجروا وتميزوا وصارت لهم أرضهم أُذن لهم في القتال ثم أُمروا به.

ومما يوجب الحرص على هذا الجو السلمي المساعد على نشر الإسلام في الغرب أنه ـ في تقديري ـ لن يدوم. إن الدول الديمقراطية تبيح الحرية ما دام المخالفون أقلية لا خطر منها على العلمانية، أما إذا نما عددهم ورأوا فيه تهديداً للنظام العلماني فإنهم ـ قطعاً ـ سيضحون بالديمقراطية من أجل المحافظة على العلمانية.

إنني أعلم أن هذا موضوع حساس من السهل أن يساء فهمه، فدعوني أؤكد أنني لا أريد أن أقول ولا أن ألمح إلى أن كل معاهدة صلح فهي حديبية؛ بل إن بعضها انهزامي لا يأتي بخير، ولا أريد كذلك أن أدعو إلى إلغاء الجهاد أو أدعو إلى سلم مطلق مهما كانت الظروف. إن الإسلام دين واقعي ليس ـ ولا يمكن أن

يكون ـ استسلامياً لا مجال فيه لقتال . لكن الذي أريد أن أؤكده هو أن للقتال ظروفه كما أن للسلم ظروفه ، فإذا كفى الله المؤمنين القتال بحال سلم ينتشر فيها الإسلام فمن الواجب اختيارها والمحافظة عليها والتركيز على الدعوة بالكلمة والقدوة. قال ـ تعالى ـ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

[النحل : ١٢٥] .

قال الإمام القرطبي معلقاً على هذه الآية الكريمة : وقد قيل إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة . والله أعلم .

وهذا الذي قيل هو الصواب ؛ لأن الغاية الأسمى التي ينشدها الداعية المسلم هي أن يجعله الله سبباً لهداية الناس لا قتلهم ؛ فها هو ﷺ ينصح علياً ـ رضي الله عنه ـ بقوله : «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1] . قال له ﷺ ذلك وقد أعطاه الراية موجهاً إيَّاه إلى خيبر ليبيِّن أن القتال ليس شيئاً مرغوباً في ذاته ؛ لكنه قد يكون وسيلة لا مندوحة عنها لرد الظلم ، سواء كان ظلماً واقعاً على بشر ، أو ظلماً متمثلاً في الوقوف في طريق إيصال الدعوة إلى الناس ، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك ؛ بل كان هنالك استعداد للاستماع والمجادلة والمناظرة فلا يلجأ إلى القتال ، ولا سيما في ظروف كتلك التي يكون فيها الدعاة تحت سلطان الكفار .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

(١) البخاري، المناقب، ٣٤٢٥ .

(٣)
أخرجوهم... فإنهم مسلمون

(البيان ١٣٩ ـ ربيع الأول ١٤٢٠هـ ـ يوليو ١٩٩٩م)

كان هدف الطائفة الحاقدة من الصرب ممثلة في رئيسها الدكتاتور المغرور المستكبر الكذاب ميلوسيفتش ومن معه هو إخراج المسلمين جميعاً من كوسوفا، بل ومن أوروبا كلها إن أمكن، بل ومحوهم من على ظهر الأرض إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وكان السبب المعلن ـ على الأقل ـ لدول الناتو في قصفها ليوغسلافيا هو رد هذا البغي الصربي عن المسلمين (أو الكوسوفيين من أصل ألباني كما يسمونهم) وأن يضمنوا لهم شيئاً من الحكم الذاتي الذي يحقق لهم شيئاً من الاستقلال والمحافظة على هويتهم.

وربما كان المتوقع أن يستجيب ميلوسيفتش لمطالب الناتو بمجرد أن يرى الصواريخ تمطر على بلاده ناراً تحطم الجسور وبعض المباني، وتلحق بالبلاد بعض الأضرار الاقتصادية؛ لكن هذا لم يحدث؛ بل الذي حدث أنه بينما كان الناتو يقصف بلاده كان هو يزيد من نشاطه ضد المسلمين، فيرسل مزيداً من قواته المعتدية على المسلمين في كوسوفا لتواصل مهمتها الإجرامية في قتل الشباب، واغتصاب النساء، وتجويع الشيوخ والأطفال، وإجلائهم جميعاً عن بلادهم، ليتفرقوا أيدي سبأ في أوروبا وأمريكا، وكان الناتو يعزو عدم قصفه للقوات الصربية في كوسوفا إلى سوء الأحوال الجوية تارة، وبأنهم مستخفُون لا تُعرف أماكنهم تارة، وبأن الأمر يحتاج إلى تدخل قوات بريَّة تارة ثالثة، وأنهم حريصون حتى الآن على عدم زج قواتهم البرية في هذه الحرب خوفاً من كثرة

الضحايا التي ربما إذا رأتها الشعوب الأوروبية والأمريكية صارت معارضة للحرب كما حدث في الصومال.

فماذا بعد هذا[١]؟

قد يوافق الدكتاتور الصربي على مطالب الناتو بعد أن يضمن أن كوسوفا قد خلت من المسلمين أو كادت، فهل ترضى دول الناتو بهذا، فتوقف قصفها وتنهي حربها؟ لئن فعلت لتظهرن أمام شعوبها بأنها قد خابت في مهمتها الأساسية التي كانت قد سوغت لهم بها قصفها، وما أظن أن هذه نتيجة تقبل بها هذه الدول؛ لأنها تعلم أن لها آثاراً بالغة في نفوس شعوبها، إنها ستقلل - لا محالة - من إيمان شعوبها بإنسانية حضارتها، وتضعف من ثقتها بحكوماتها كما حدث حين إخفاقها في إنصاف المسلمين في البوسنة والهرسك.

ستحاول هذه الدول - إذن - أن تعيد الكوسوفيين المشرَّدين إلى بلادهم، ولكن هل سيرجعون طائعين؟

إذا كان الرجوع إلى بلد لا يزال تحت سلطان الصرب بأي شكل كان، فما أراهم فاعلين بعد أن ذاقوا ما ذاقوا على أيديهم من الظلم والإذلال والهوان، وإذا لم يرجعوا فإن الناتو يكون قد أخفق مهما حاول إلقاء اللوم عليهم؛ لأن دوافعهم في عدم الرجوع ستكون بادية لكل عاقل. نعم؛ إن وجود القوات الدولية ربما يطمئنهم بعض الشيء، وربما أغرى بعضهم بالرجوع؛ لكن الكثيرين سيتساءلون - وهم محقون -: إلى متى ستبقى هذه القوات؟ إنه مهما طال أمد بقائها فإنه لا فائدة فيه في نهاية الأمر إذا كانت كوسوفا ستعود جزءاً من يوغسلافيا. قد يقال: إنها ستبقى حتى يزول الطاغية الكذاب؛ لكن هذا - أيضاً - لن يجدي

(١) كتب هذا في ٢١ محرم ١٤٢٠هـ الموافق ٦ إبريل ١٩٩٩م.

كثيراً؛ لأن الطاغية وراءه أناس من نوعه هم الذين يؤيدونه الآن، وهم الذين ازداد تأييدهم له بعد حرب الناتو له؛ فما أظن إلا أنهم سيستمرون في سياسته بشاكلة من الأشكال.

وعليه؛ فإن الضمان الوحيد لرجوع الكوسوفيين واستقرارهم في بلادهم هو الانفصال الكامل عن يوغسلافيا ليختاروا بعد ذلك أن يكونوا دولة مستقلة أو أن ينضموا إلى ألبانيا، فهل توافق دول الناتو على ذلك؟

إن لم تفعل ولم يرجع المسلمون إلى ديارهم فإن المتعصبين الصرب يكونون قد حققوا هدفاً ثانياً من أهدافهم هو انسلاخ الكوسوفيين بعضهم أو أكثرهم عما تبقى لهم من هوية إسلامية؛ لأن هذا هو الذي سيحدث لا محالة إذا ما تمزقوا شذر مذر في بلاد غير إسلامية.

إن إخراج الكفرة المستكبرين للمسلمين المستضعفين من أرضهم ليس بالأمر الجديد؛ بل هو سُنَّة متبعة كما يبين القرآن الكريم. ربما ظن كثير من المسلمين أن هذا إنما يحدث للمسلمين شديدي التمسك بدينهم، وأنهم إن أظهروا عدم الالتزام بشرائع دينهم؛ فإن الكفرة المستكبرين سيتسامحون معهم. لكن هذا وَهْمٌ كبير؛ فها هي ذي تجارب عصرنا تثبت لنا أن المستكبرين من الكفار لا يقبلون من المسلمين حتى مجرد الانتساب للإسلام. لقد كان الشيوعيون أيام الاتحاد السوفييتي يضيقون حتى بمجرد الأسماء الإسلامية، ودعك عما فوقها. إن الكفرة المستكبرين لا يرضَون عن المسلمين إلا إذا كانوا أمثالهم؛ فانسلخوا انسلاخاً كاملاً عن دينهم: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] فشرط العودة إلى الأرض هو العودة إلى الكفر.

وإذا كان هذا قد حدث لمسلمي كوسوفا؛ فهل يحدث مثله لأقليات مسلمة أو لمسلمين مستضعفين في أماكن أخرىٰ من العالم؟ هذا أمر ينبغي أن تتدبره تلك الأقليات، وأن تفكر منذ الآن في كيفية الحفاظ علىٰ دينها وشرفها.

إنه لا مناص من مثل هذا المصير لمسلمين يختارون العيش بين ظهراني هذا النوع من الكافرين إلا أن تكون لهم قوة ذاتية أو قوة خارجية يُرهبون بها عدو الله وعدوهم.

إن أمثال هؤلاء الأعداء لا يجدي معهم منطق ولا حوار؛ لأنهم مدفوعون ـ والعياذ بالله ـ بكراهية شديدة للحق والطهر:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٩].

إن هؤلاء الكارهين للحق والطهر مستعدون ـ بتسويل الشيطان لهم ـ أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الباطل والفساد. لكن عقاب الله لهم بالمرصاد في هذه الدنيا قبل الآخرة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾.

[محمد: ٢٦، ٢٧].

(٤)

دعاة يستحقون المساعدة

(البيان ١٤٠ - ربيع الآخر ١٤٢٠هـ - أغسطس ١٩٩٩م)

من الداعية؟

الذي يغلب على ظننا حين نتحدث عن الداعية أنه الإنسان العالم بدينه، ولا سيما المتخرج في مؤسسات العلوم الشرعية. ولا جدال في أن الداعية العالم هو الداعية الحق الذي لا غَناء للناس عنه؛ وذلك لأن هذا الدين دين قائم على علم ذي مصدر إلهي، لا على آراء البشر وأفكارهم وتخرصاتهم؛ فلا يكون ما يدعو إليه الداعية إسلاماً إلا إذا كان مستنداً إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. هذا، ولأن الناس يتوقعون من الداعية أن يُعلِّمهم العقيدة الصحيحة، وأن يفتيهم في الفروع الفقهية، وأن يدربهم على تقويم الأشياء بقيم الإسلام، وأن يعظهم المواعظ المرققة للقلوب، وهكذا، وكل هذا لا يتأتى إلا بالعلم، وإن كان لا يتأتى بالعلم وحده.

لكن من الخطأ الشائع الظن بأن دعوة الله - تعالى - لا يُبلِّغها إلا هذا النوع من الدعاة العلماء الذين نالوا حظاً من كل علم من العلوم الشرعية. وإنه لخطأ عظيم أن تُحصرَ الدعوة إلى الله - تعالى - في قلة من المختصين، وأن يعتقد غيرهم من المسلمين أنه لا حق لهم في نيل شيء من هذا الشرف العظيم، وإن كانوا من أحسن المثقفين. إن هذا التصور الغالط للدعاة كان من أسباب عدم انتشار العلم انتشاراً واسعاً بين جماهير الناس، وكان أيضاً من أسباب عدم وصول دعوة الإسلام إلى السواد الأعظم من غير المسلمين، وذلك لأن عدد العلماء المختصين لا يمكن أن يَسَعُوا بدعوتهم خَلْق الله أجمعين.

لكن الحق أن الدعوة إلى الله شرف عظيم، قمين بكل مسلم أن يحرص على نيل نصيبه منه، كيف لا؟ والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، والرسول ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية»[١]؟!

إن المهم في الداعية ـ عالماً مختصاً كان أو غير مختص ـ أن لا يدخل فيما لا يعلم؛ بل عليه أن يبلغ الآية أو الحديث الذي يعلم، فإذا سئل عما لا يعلم لم يتردد في أن يقول: لا أعلم، وأحال السائل إلى من يظن أنه يعلم.

إن المسلم بفهمه لمعنى كلمة التوحيد قد نال نصيباً من الخير الذي ذكره الرسول ﷺ في قوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[٢]. وهذا أمر ينبغي أن يكون بدهياً؛ لأن الذي لا خير فيه لا يدخل الجنة، فما دام كل مؤمن موعوداً بدخول الجنة فلا بد أن يكون في قلبه ولو ذرة من خير. وإذا كان في قلبه خير ففيه فقه؛ لأن الأمرين متلازمان. قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه»[٣] يعني من النار.

وإذا كان بعض الناس قد قصَّر في هذا الأمر، وظن أن أمر الدعوة لا يعنيه فإن آخرين كثراً قد بَلَوا بلاء حسناً في الدعوة إلى الله رغم قلة بضاعتهم في العلوم الشرعية. فمن هؤلاء أناس اهتموا بالرد على المذاهب المخالفة للإسلام من شيوعية ومادية ورأسمالية. وهذه ـ بلا شك ـ ثغرة كانت تحتاج إلى من يقف عليها.

لكنني مهتم اليوم بنوع آخر من الدعاة عرفتهم بالولايات المتحدة، هم الذين

---

(١) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو، وقال هذا حديث صحيح.
(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة من حديث معاوية بن أبي سفيان.
(٣) هذا جزء من حديث طويل، رواه مسلم في كتاب الإيمان.

أدعو إلى الاهتمام بهم وعونهم. أعرف من هؤلاء رجلاً لم يهتد إلى الإسلام إلا قبل سنتين أو ثلاث، وهو لا يعرف اللغة العربية، فبضاعته في العلوم الشرعية مزجاة، لكن إيمانه ـ فيما نحسب ـ أكثر من علمه بكثير. إن عينيه لا تكادان تجفان حين يكون في مجلس علم؛ بل إن كلماته البسيطة المفعمة باليقين لتفيض لها أدمع الحاضرين. هذا الرجل من أنجح من عرفت من الدعاة. إن المهتدين عن طريقه هم بمعدل اثنين أو ثلاثة في كل أسبوع!

حدثني أحد إخواننا من الشباب السودانيين المتعاونين معه أنه يأخذهم ويسير بهم في الطرقات، فكلما لقي شخصاً ظن أنه يمكن أن يهتدي سأله قائلاً: يا أخي، هل تريد الدخول في الإسلام؟ فبعضهم لا يجيب وبعضهم يقف ويستمع، وبعضهم يقف ليجادل؛ لكنه يقول للمتعاونين معه: لا تضيعوا وقتكم مع هؤلاء المجادلين؛ فإن البلد مليء بالراغبين في الدخول في الإسلام. يتكلمون هكذا مع العشرات من الناس فيستجيب لهم بالدخول فيه من أولئك الاثنان أو الثلاثة في كل أسبوع.

ماذا يفعل بالمستجيبين؟ إنه يوجههم إلى المساجد وحلقات العلم والجماعات الإسلامية؛ لكي يزدادوا علماً؛ لكنه يرى أنهم بحاجة إلى عناية خاصة، ويود أن لو كان له من الإمكانات المادية ما يعينه على استئجار أو شراء دار يتجمعون فيها، وعلى طباعة نشرات صغيرة خاصة يوزعها عليهم، وهكذا....

فحبذا لو أن إخواننا المحسنين المهتمين بأمر الدعوة أفراداً كانوا أو جماعات خيرية أو مؤسسات رسمية شملوا أمثال هؤلاء في مفهومهم للدعاة، وأعانوهم إعانات فردية تمكنهم من التفرغ لمثل هذا العمل العظيم، وإعانات جماعية لإنشاء الدور والمساجد الصغيرة، وإصدار النشرات وشراء الكتب. إن أمثال هؤلاء الدعاة كثيراً ما يكونون أنجح من أمثالنا ـ نحن الغرباء ـ في هداية قومهم إلى

الإسلام، حتى لو كنا نتحدث لغتهم ونعلم أكثر منهم. إن مهمتنا كثيراً ما تأتي بعد مهمتهم، أعني أن نتولى تعليم من سبق له أن اهتدى بهداية الله ـ تعالى ـ.

أرجو من إخواننا المهتمين بأمر الدعوة أن لا يغتروا بالأسماء اللامعة والجماعات المشهورة، فيظنوا أنها هي وحدها الجديرة بالمساعدة؛ مع أن بعضها لا يمكن أن يُعَدَّ إلا من الفِرَقِ الضالة؛ بل وإن بعضها لمن الكافرة.

لكن بالولايات المتحدة الآن عشرات من الجماعات الصغيرة، ومئات من الأفراد الذين اطمأنوا إلى منهج أهل السنة والجماعة، فهم راغبون في أن يزدادوا به علماً، حريصون على دعوة إخوانهم إليه، فلنبادر إلى مساعدتهم والتعاون معهم وشد أزرهم، راجين من الله ـ تعالى ـ حسن الثواب.

(٥)
ليسوا عقلانيين .. وإنما هم أهل أهواء

(البيان ١٤١ ـ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ ـ سبتمبر ١٩٩٩م)

شاع في عصرنا اصطلاح «العقلانيين» وصفاً لأصحاب المناهج المنحرفة عن المنهج الصحيح لفهم الدين وتفسير نصوصه واستخلاص النتائج منها. وهذا مصطلح غير سديد.

أولاً: لأن فيه اعترافاً ضمنياً بأن العقل يمكن أن يكون مخالفاً للشرع؛ هذا مع أن المستعملين لهذا الاصطلاح يؤمنون بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول. فلماذا إذن تستعمل اصطلاحاً يتضمن تقريراً لأمر ننكره؟

ثانياً: لأننا لا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ أن إنساناً ضل بسبب عقله، وإنما نجد أن الضالين هم الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ولا يتفكرون ولا ينظرون، وأن المهتدين هم أصحاب العقول وأولو الألباب: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر: ١٨].

ثالثاً: لأن هنالك فرقاً بين العقل والهوى؛ فالإنسان يضل بهواه لا بعقله، ولذلك كان السلف يسمون المعتزلة وأمثالهم أهل الأهواء لا العقلانيين كما يسميهم الآن بعض المعاصرين تقليداً لبعض المستشرقين.

رابعاً: ولأن هنالك فرقاً بين الرأي والعقل، فما كل رأي هو على مقتضى العقل حتى لو كان صاحبه مجرداً عن الهوى، وإنما الرأي رأيان: رأي صائب فهو موافق للعقل ضرورة، ورأي غالط فلا يمكن أن يكون من مستلزمات العقل.

خامساً: لأن وصف أمثال هؤلاء بالعقلانيين فيه فتنة لهم؛ فقد يزيد أحدهم

غروراً فيذهب يقول متباهياً: أجل نحن العقلانيون، نحن المفكرون، وما أنتم إلا حشوية جامدون مرددون لما لا تفقهون.

سادساً: لأن أئمة أهل السنة من أمثال أبي سعيد الدارمي وابن تيمية لم يكتفوا بالكلام المجمل في أن المذهب الحق هو الموافق للعقل؛ بل بينوا ذلك بياناً مفصلاً شافياً، كما ساقوا البراهين العقلية الدالة على مخالفة أهل الأهواء لمقتضيات العقل، ودللوا على أن ما ادعوا بأنه عقليات إنما هو جهليات، ما أنزل الله بها من سلطان عقلي ولا شرعي.

سابعاً: لأن كل أمر من أمور الدين يمكن أن يُستدل عليه بدليل عقلي!

أكرر: (كل أمر) سواء كان في الاعتقاد أو في العبادات أو في المعاملات، وسواء كان في أصول الدين أو في الفروع الفقهية. وعليه فإن العقلانيين حقاً هم أصحاب المنهج الحق، مذهب أهل السنة والجماعة.

إن الاقتناع بالدليل العقلي يعتمد على أمرين: أولهما: أن يكون المخاطَب عاقلاً، فإذا لم يكن كذلك فلا سبيل إلى مجادلته أو إقناعه، وثانيهما: أن تكون مقدماته صحيحة مؤدية إلى النتيجة المبتغاة. لكن المقدمات منها ما هو بيِّن بنفسه يدرك العاقل صحته ببداهة عقله، ومنها ما يعتمد هو نفسه على دليل آخر. وهذا هو الذي يحدد طول دليلك أو قصره مع من تخاطب. قد يسلِّم من تخاطب بأول مقدمة من دليلك فيكون الدليل قصيراً، وقد يحتاج إلى أن تدلل له على صحة بعض مقدماتك، إذا كان لا يسلِّم بها فيكون الدليل طويلاً. فمن الأدلة القرآنية القصيرة جداً دليل على وجود الخالق يقوم على مقدمتين بدهيتين لدى كل عاقل، ولا يماري فيهما إلا مكابر. وهما: أنه لا شيء يأتي من العدم المحض، ولا شيء يخلق نفسه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]؛ لكن هب إنساناً زعم أن البعث أمر مستحيل كما كان بعض منكريه من العرب يدعون.

ستقول له ما قرر القرآن: إن الذي خلقه أول مرة قادر على إعادته؛ لكن هذا الدليل يعتمد على تسليمه بأن الله - تعالى - هو الذي خلقه. فإذا أنكر ذلك احتجت لأن تبرهن له على وجود الخالق. قد تقول: هذه أمثلة بدهية واضحة؛ لكن ما كل مسائل الدين كذلك؛ بل منها ما نسلم به مجرد تسليم!

وأقول: لكن التسليم نفسه هو مقتضى العقل؛ فكيف يكون ذلك؟

وعلى أي شيء تبني تسليمك بأن المغرب ثلاث ركعات مثلاً؟ إنك تبنيه على أن هذا ما أمر به الرسول ﷺ. لكنك لو شئت لمددت حجتك فقلت: والرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى؛ فكل ما أمر به فهو من أمر الله، والله - تعالى - لا يقرر إلا حقاً، ولا يأمر إلا بخير: ﴿وتمَّتْ كلمتُ ربِّك صدْقًا وعدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]. إن كل عاقل يسمع ما تقول يدرك أن مقدماتك التي ذكرت تؤدي إلى وجوب التسليم بأن المغرب ثلاث ركعات. أقول: إذا كان عاقلاً منصفاً فسيرى هذا حتى لو لم يكن يؤمن بما تؤمن به من مقدمات. وأما إذا أراد أن يسلِّم بما سلمت به فسيسألك الدليلَ على صحة بعض مقدماتك. كأن يقول لك: ما الدليل على أن الرسول قال ما نسبتَ إليه؟ أو: ما الدليل على أن محمداً رسول الله؟ وهكذا. وكل هذه أسئلة عليها أدلة عقلية: إن علمتها ذكرتها لصاحبك، وإن لم تعلمها أحلته على من هو خبير بها.

قد تقول: لكن هب أن صاحبي قال: إنه لا يريد دليلاً يقوم على مثل هذه المقدمات الدينية؛ بل يريد دليلاً مباشراً!

فأقول: إن صاحبك لا يكون إذن عاقلاً. إن النتائج إنما تبنى على المقدمات التي تناسبها، والتي من شأنها أن تؤدي إليها، فإذا كان مسلِّماً بها سلَّم بالنتيجة، وإذا لم يكن مسلِّماً بها كان من حقه أن يطلب الدليل على صحتها. ليس له إلا هذا.

قل لصاحبك هذا: ما الدليل على أن ٤× ٥ = ٢٠؟ فإذا بدأ يقول لك إن ٤×٥ معناها ٤ + ٤ + ٤ + ٤ + ٤ فقل له: أنا لا أريد دليلاً مبنياً على الجمع، بل دليلاً مباشراً. سيقول لك: فكرة الضرب مبنية على فكرة الجمع، وإذا كنت لا تعرف الأخيرة ولا تسلم بها فلا يمكن أن أعطيك دليلاً على الأولى. وكذلك الأمر بالنسبة لعدد ركعات المغرب؛ فإن الدليل عليها مبني على التسليم بأن محمداً رسول الله ﷺ، وعلى الإيمان بالله.

ذلك هو موقفنا من العقل. فما موقف أصحاب الأهواء؟

لقد أجاب أئمة أهل السنة عن هذا السؤال بكثير من التفصيل فيما يتعلق بأصحاب الأهواء في عصرهم، وبقي علينا نحن أن نفعل الشيء نفسه بالنسبة لمن في عصرنا، ولا نكتفي بوصفهم بالعقلانيين للأسباب التي ذكرتها. وقد أبلى بعض مفكرينا المعاصرين في هذا بلاء حسناً، وكنتُ قد رددتُ في مقال سابق في هذه الزاوية على مفهوم بعضهم الغالط لقاعدة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وربما تعرضتُ في مقالات لاحقة إلى بعض دعاواهم ومبادئهم الأخرى - إن شاء الله تعالى -، وإذا كان لبعض إخواننا القراء من اقتراحات في هذا المجال فأرجو أن لا يبخلوا علينا بها، ولهم منا الشكر، ومن الله الأجر - إن شاء الله -.

(٦)
الانفراط العظيم

(البيان ١٤٢ـ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ ـ أكتوبر ١٩٩٩م)

الانفراط العظيم: اسم كتاب جديد لعالم الاجتماع والمفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما[١] الذي كان قد ذاع صيته بعد أن أصدر كتابه: (نهاية التاريخ) الذي كان قد زعم فيه أن النظام الغربي: الليبرالي في السياسة، والرأسمالي في الاقتصاد هما وحدهما النظامان اللذان يتناسبان مع الفطرة الإنسانية؛ لأنهما اللذان يحققان ما في تلك الفطرة من نشْدَانٍ للكرامة؛ فهما يمثلان لذلك نهاية التاريخ في هذا المجال ـ أعني مجال النظم السياسية والاقتصادية ـ وأن هذا هو الذي يفسر سير العالم كله نحوهما[٢]. لكن فوكوياما كتب في هذا العام ـ بعد عشر سنوات من صدور كتابه ذاك ـ مقالاً تراجع فيه عن تلك الفكرة، وعزا تراجعه إلى أن فكرة الكتاب كانت قائمة على افتراض الثبات في الفطرة الإنسانية، وأن تتبعه للتطورات التي حدثت في علم الأحياء في هذه السنوات العشر، ولا سيما في مجال هندسة الجينات، أقنعته بأن العلم الطبيعي يمكن أن يغير الطبيعة البشرية! وإذا كانت الطبيعة البشرية متغيرة فإن النظم السياسية والاقتصادية المناسبة لها ستكون أيضاً متغيرة. ولا يدري المرء: أيعجب أكثر من فكرة الكتاب الأولى، أم من السبب الذي دعاه للتراجع عنها؟

---

(١) Fukuyama, Francis. The Great Disruption: human nature and the reconstruction of social order, The Free Press, New York, 1999 والمؤلف هو الآن أستاذ السياسات العامة بجامعة جورج ميسن بولاية فرجينيا، وقد عمل قبل ذلك بوزارة الخارجية الأمريكية.

(٢) ذكر المؤلف في كتابه ذاك بأن المسلمين هم الوحيدون الذين ما يزالون يعتقدون أن عندهم بديلاً أحسن.

أما في هذا الكتاب الجديد فإن الكاتب يناقش قضية من أخطر القضايا التي لا تقتصر أهميتها على المجتمعات الغربية التي هي موضوع الكتاب؛ بل تهم أو ينبغي أن تهم كل المعنيين بقضايا القيم الخلقية، وصلتها بالفطرة، وبما يحدث في المجتمع من تغيرات تقنية. إن دعاة التغريب في بلادنا ينظرون إلى الغرب نظرة مثالية تغض الطرف عن كل ما يحدث فيه من مشكلات؛ لأنهم يخشون أن تكون معرفة تلك المشكلات صادة للناس عن السير في طريقه الذي هو مبتغاهم. وهذا -كما ترى- ليس من العقلانية، بل ولا من الأمانة في شيء. إن غاية المواطن الأمين ينبغي أن تكون السعي لمصلحة بلده. والسعي للمصلحة يدخل فيه التحذير من الطرق التي تؤدي إلى الضرر؛ لكن إذا كان المستغربون عندنا يحاولون إخفاء هذه الحقائق، فما هكذا يفعل عقلاء المفكرين الغربيين الحريصين على مصالح مجتمعاتهم وأقوامهم.

إننا في العالم الإسلامي -كما هو الحال في بقية العالم- نسير في طريق الغرب في كثير من نواحي حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، سواء بضغط من الغرب نفسه، أو بتشجيع من أولئك المستغربين المبهورين به، أو لأسباب أخرى. فالاهتمام بما يحدث في الغرب من مشكلات هو إذن اهتمام بمستقبلنا؛ لأن مشكلات الغرب الآنية هي مشكلاتنا المستقبلية إذا ظللنا نسير في طريقه غير معتبرين بمزالقه.

وإذا أردنا الاعتبار فإن مما يساعدنا عليه كثيراً هو الحقائق التي ينشرها علماء الغرب ومفكروه أنفسهم. لكن استفادتنا من الحقائق لا تعني بالضرورة قبولنا لتفسيراتهم لها، ولا للحلول التي يقترحونها. نعم! قد نستفيد من تفسيراتهم ومن حلولهم؛ لكن يجب أن نفكر لأنفسنا فنجتهد في التفسير والحل مسترشدين بديننا ومعتبرين بما حدث لنا ولغيرنا في تاريخهم وتاريخنا، والكتاب الذي بين

أيدينا من الكتب النافعة في هذا المجال .

يبدأ الكتاب بإعطائنا ملخصاً للحقائق الإحصائية لما أسماه بالانفراط العظيم في مجال القيم الخلقية فيقول :

ازدياد في الجريمة وفي تفكك النظام الاجتماعي جعل أواسط المدن في أغنى البلاد على وجه الأرض أماكن لا تكاد تُسكن . التدهور في علاقات القربى باعتبارها مؤسسة اجتماعية ظلت قائمة منذ أكثر من مئتي عام[1] ازداد زيادة كبيرة في النصف الثاني من القرن العشرين في كل البلدان الغربية الصناعية . انحط معدل الإنجاب في معظم الدول الأوروبية وفي اليابان إلى درجة من الدنو يجعلها عرضة لتناقص عدد سكانها في القرن القادم إذا لم تكن هنالك هجرة إليها ، قلَّ الزواج وقلَّ الإنجاب ، وتفاقمت معدلات الطلاق ، بلغت نسبة الأولاد غير الشرعيين الثلث في الولايات المتحدة والنصف في الدول الاسكندنافية . وأخيراً فإن الثقة في المؤسسات ظلت تتناقص تناقصاً كبيراً لمدة أربعين عاماً . في الخمسينيات عبَّر أغلبية الناس في الولايات المتحدة وفي أوروبا عن ثقتهم في حكوماتهم وفي زملائهم ؛ لكن أقلية ضئيلة هي التي عبَّرت عن مثل هذه الثقة في التسعينيات . تغيرت اهتمامات الناس بشؤون بعضهم ببعض ، ومع أنه لا يوجد دليل على تناقص في الصلات بين الناس ؛ إلا أن العلاقات بينهم صارت أقل دوماً ، وأقل جاذبية ، ومع عدد أقل من الناس[2] .

يقول الكاتب : إن هذا التدهور في العلاقات الاجتماعية في هذه البلدان الغربية الصناعية في الفترة ما بين أواسط الستينيات إلى أوائل التسعينيات كان مواكباً لانتقالٍ في هذه البلاد من العصر الصناعي إلى العصر الذي سمي

---

(١) لعله يعني في الولايات المتحدة .

(٢) انظر : ص ٤ من الكتاب .

بـ(ما بعد الصناعي) تارة، وبـ(عصر المعلومات) أخرىٰ.

فهل هناك من علاقة سببية بين ذلك التدهور وهذا التطور؟

يجيب بأنه يفترض هذا، ويقول: إن تدهوراً كهذا أعقب الثورة الصناعية في الغرب.

ما الحل إذن؟ يجيب بأنه ليس في الدين كما يظن المحافظون.

فِيمَ إذن؟ هنا يعود الكاتب إلىٰ فكرة الفطرة البشرية، فيقول: إن البشر هم بطبعهم مخلوقات اجتماعية تهديهم أعظم نوازعهم وغرائزهم أصالة إلىٰ أن يُنشِئوا قواعد خلقية تربط بينهم فتحيلهم إلىٰ مجتمعات. وهم كذلك عقلاء، وعقلانيتهم تجعلهم يُحْدِثون طرقاً للتعاون التلقائي بينهم.

سنكتفي الآن بهذا التلخيص لفكرة الكتاب، ثم نعود لمناقشته في حلقات قادمة بإذن الله.

لكن يحسن أن نبدأ قبل ذلك ببيان السبب الذي يدعو أمثال هؤلاء الكتاب الاجتماعيين إلىٰ العناية بقضايا القيم الخلقية الآن. لقد كان الرأي الشائع عند أمثال هؤلاء العلماء، والذي ما زال كذلك عند عامة المثقفين الغربيين، أن القيم أمور نسبية، وأنها تختلف لذلك من ثقافة إلىٰ أخرىٰ، ومن زمان إلىٰ زمان. وأن كلاً منها مقبول في إطار الثقافة التي توجد فيها، والزمان أو المكان الذي توجد فيه؛ فلا مجال إذن للحكم عليها بالخيرية أو الشرية، ولا خوف إذن من تغيرها وتبدلها. ثم إنه تبين لبعض علماء الاجتماع والاقتصاد أن الصورة ليست كما يرسمها هذا الرأي الشائع؛ بل إن هنالك قيماً لا بد منها لكل مجتمع بشري. لماذا؟ لأن الناس إذا اجتمعوا فإنما يجتمعون ليتعاونوا علىٰ تحقيق مصالحهم؛ لكن هذا التعاون لا يتأتىٰ إلا بالتزام المجتمع ببعض القيم الخلقية: قيم الصدق في

القول، والوفاء بالعهد، وحسن تبادل المنافع، وتوفر الثقة التي يقول فوكوياما عنها: إنها بمثابة الشحم الذي يجعل عجلة التجمعات والمنظمات البشرية تجري بطريقة أكثر كفاءة؛ فالقيم هذه ليست ـ إذن ـ أموراً نسبية ولا «مجرد قيود تحكمية على الاختيارات الفردية؛ بل هي شرط سابق لأي عمل تعاوني».

إنه لا بد لكل مجتمع من نظام سياسي ونظام اقتصادي، لكن النظم السياسية والاقتصادية لا تعمل ولا تنجح إلا في مجتمع متماسك. ولكي يتماسك المجتمع فإنه بحاجة إلى تلك القيم التي صار الاقتصاديون وعلماء الاجتماع يطلقون عليها اسم: الرأسمال الاجتماعي.

الأسباب والآثار:

يبدأ الكاتب في شرحه للأسباب التي أدت إلى ذلك التمزق في المجتمعات الغربية بمقدمة منهجية معقولة هي أنه ما دامت مظاهر هذا التمزق عامة في كل الدول الغربية الصناعية، وما دامت قد حدثت مجتمعة، وفي فترة زمنية محددة، فإن هذا يدعونا لأن نبحث لها عن أسباب في أمر أو أمور مشتركة بين هذه الأقطار، لا في الأسباب الخاصة ببعضها دون بعض.

ويرى تبعاً لذلك أن السبب الأساس لها كان تحولاً ثقافياً، تحولاً قيمياً تمثل في اشتداد النزعة الفردية، وأن أعظم ما أثرت فيه هذه النزعة الفردية هو العلاقات بين الجنسين، والأسرة على وجه الخصوص. وأن مظاهر ذلك الانفراط أو التمزق نشأت كلها تقريباً عن التفكك الذي أصاب الأسرة.

لكنه يعود فيقول: إن القول بأن عزو سبب الانفراط إلى تغير في الثقافة ـ في القيم ـ مصادرة على المطلوب؛ إذ إن السؤال ما يزال باقياً: لماذا حدث هذا التغير في القيم في كل هذه البلاد المتقدمة صناعياً، وفي فترة معينة من الزمان؟

ويعترف بأن التحولات القيمية لها أسباب كثيرة؛ لكنه يرىٰ أن أهم أسبابها في هذه الفترة التي يدرسها أمران جاء بهما التطور العلمي، هما: حبوب منع الحمل، والإجهاض الآمن.

يقول: إن حبوب منع الحمل وتوفُّر الإجهاض أَذِنا للنساء ـ لأول مرة في التاريخ ـ بأن يتعاطين الجنس بلا خوف من العواقب، وأن هذا جعل الذكور يشعرون بالتحرر من القيم التي كانت تفرض عليهم مسؤولية العناية بالنساء اللاتي حملن منهم.

ويقول: إن الذي كان يمنع النساء من استبدال زوج يناسبهن مكان الزوج الذي يعشن معه، ويكتشفن أنه لا يناسبهن هو أنهن لم يكُنَّ قادرات علىٰ الإنفاق علىٰ أنفسهن بسبب أنهن لم يكن يعملن، فلما عمل النساء وصارت دخولهن تزداد باطراد وجدن أنه بإمكانهن أن يربين أطفالهن من غير عون من الأزواج، لكن إنجاب الأطفال يقلل من فرص المرأة في العمل؛ فلكي تنجب المرأة فإما أن لا تعمل إطلاقاً، وإما أن تتوقف عن العمل لفترات، فإذا كانت حريصة علىٰ العمل فإنها ستلجأ إلىٰ الحد من الإنجاب، ثم إن قلة الأطفال تزيد بدورها من احتمالات الطلاق؛ لأن الأطفال هم (الرأسمال المشترك) بين الزوجين. ويقول: إن هناك دلائل تجريبية كثيرة تؤكد الصلة بين الدخول العالية للنساء وبين الطلاق والإنجاب خارج نطاق الزوجية، ثم إن ازدياد معدلات الطلاق يؤدي بدوره إلىٰ عدم ثقة النساء باستمرار الحياة الزوجية، ويدفعهن إلىٰ تأهيل أنفسهن للعمل، كي يضمَنَّ مستقبلهن. ثم إن التحول من العصر الصناعي إلىٰ عصر المعلومات زاد من فرص النساء في العمل؛ وذلك لأن الأعمال ذوات الرواتب العالية لم تعد تلك التي تحتاج إلىٰ جهد جسدي لا يقوىٰ عليه إلا الرجال، بل تلك التي تحتاج إلىٰ جهد عقلي، كالعمل في مجال الحاسوبات، وهو أمر ينافس فيه النساءُ الرجالَ.

الآثار:

يذكرنا الكاتب بما قال في بداية كتابه من أن الجريمة وانهيار الأسرة وتناقص الثقة هي معايير سلبية لما سمي بالرأسمال الاجتماعي (معايير سلبية بمعنى أن زيادتها تدل على نقص في رأس المال هذا)، وكيف أثر ذلك التغيير في القيم على رأس المال الاجتماعي هذا؟ وكيف أثر في مقدرة الناس على الاجتماع لتحقيق غايات تعاونية؟ وكيف أثر على مستوى الثقة بينهم؟ يذكر الكاتب آثاراً نوجزها فيما يلي:

١ ـ إن نصف السكان في أوروبا واليابان ستكون أعمارهم أكثر من خمسين عاماً في غضون العقدين القادمين، وسيؤدي هذا ـ بالإضافة إلى ما يصحبه من نقص في عدد السكان ـ إلى نقص في الدخل القومي، ثم يؤدي هذا كله إلى ضعف هذه الأقطار وقلة تأثيرها على المسرح العالمي.

٢ ـ وأن الدول الاسكندنافية التي هي الأعلى في نسبة التفكك الأسري، هي الأعلى أيضاً في نسبة التوحد؛ إذ إن خمسين بالمائة من البيوت صارت تتكون من شخص واحد، بل إنه في مدينة أوسلو (عاصمة السويد) بلغت النسبة خمساً وسبعين بالمئة!

٣ ـ أثبتت كثير من الدراسات في الولايات المتحدة أن تأثير الأسرة والأقران على أداء الطلاب أعظم مراراً من كل العوامل التي هي بيد السياسة التعليمية العامة كرواتب المدرسين، وأحجام الفصول الدراسية، والصرف على التسهيلات الطلابية؛ لكنه يرى أن النساء لسن هن المسؤولات عن هذا، وأن الحل لا يكون بعدم خروجهن إلى مكان العمل. لكنه يرى في الوقت نفسه أن قائدات الحركة النسوية قد بالغن في إطراء عمل المرأة، وغفلن عن تأثيره على

الأطفال، وهو تأثير لازم وواقع، وسيستمر كذلك حتى يتطور العلم فيريحهن من عبء الحمل والإنجاب!!

٤ ـ إن ضرر الجريمة لا يقتصر على من يقع ضحية لها، بل يتعداه إلى المجتمع كله، وذلك أن انتشار الجريمة يقلل من ثقة الناس بعضهم ببعض، ويعوق أو يحول دون تعاونهم؛ بل إن الجريمة لتؤدي إلى جعل المجتمع مجتمعاً ذرياً يحصر كل إنسان فيه اهتمامه في نفسه وفي أقرب الناس إليه. من ذلك ـ مثلاً ـ أن الجيران كانوا يتعاونون جميعاً على تربية أولادهم، وأما الآن ـ وبعد أن كثر الاعتداء على الأطفال ـ فإذا رأى والد شخصاً يؤنب ولده فالاحتمال الأقرب أن يتصل بالشرطة.

ما المخرَج؟

هل كان الانفراط هذا ضربة لازب؟ هل كان أمراً حتَّمه التطور التقني، أم أنه كان بملك الناس أن يتفادوه؟ يرى الكاتب أن الوسائل الاختيارية المتاحة للناس للتأثير في سير أحداثهم الاجتماعية تتمثل في أمرين، هما: السياسات العامة «يعني ذلك التي ترسمها وتنفذها الجهات المسؤولة»، والثقافة الشائعة بين المواطنين وما تتضمنه من قيم، ويقول: إن كوريا واليابان وبعض الدول الكاثوليكية استطاعت أن تقلل من تأثير التطور التقني بسبب اختلاف ثقافاتها عن الثقافة الشائعة في المجتمعات الغربية؛ لكنه يرى أن محاولاتهم هذه إن أخرت حصول تلك النتائج التي حصلت في البلاد الغربية، فلن تستطيع الحيلولة دون وقوعها، ثم يتساءل: هل معنى ذلك أن المجتمعات الليبرالية المعاصرة صائرة لا محالة إلى مستويات أدنى فأدنى من الانحطاط الخلقي والفوضى الاجتماعية حتى تنفجر من الداخل؟ يرى أن الأمر ليس ميئوساً منه إلى هذه الدرجة وأن هنالك حلاً. فما هو؟ نجيب عن هذا في مقالنا القادم ـ إن شاء الله ـ.

هذا أوان أن نرجع إلى الانفراط العظيم ونتساءل: ما الذي سيحدث بعد هذا؟ هل كُتب علينا أن ننحدر إلى مستويات أدنى فأدنى من الفوضى الاجتماعية والخلقية؟ أم أن هناك سبباً معقولاً يدعونا لأن نتوقع بأن هذا الانفراط حالة طارئة، وأن الولايات المتحدة والدول الأخرى التي عانت منه ستنجح في أن تكون لها قيم من جديد؟ وإذا حدثت هذه الإعادة للقيم، ففي أي صورة ستكون؟ هل ستحدث تلقائياً، أم أنها ستتطلب تدخل الدولة عن طريق السياسات العامة؟ أم أنه لا بد لنا من أن ننتظر حدوث بعث ديني لا يمكن التكهن بمداه، ولا يمكن السيطرة عليه، لنعيد القيم الاجتماعية؟

هكذا بدأ الكاتب الأمريكي فوكوياما الفصل الأخير من كتابه (الانفراط العظيم) الذي كان قد قدم له بعدة فصول استغرقت أكثر من مائة صفحة، كان قد ذكر فيها مصادر النظام الاجتماعي، وحصرها في أربعة هي: الطبيعة البشرية، والتنظيم الذاتي، والدين، والسياسة، ثم تساءل هنا: عن أي مصدر منها سنستمد في المستقبل؟ سنذكر فيما يلي رأي الكاتب ملخصاً مع تعليقات على بعض فقراته.

هل سيستمر الانحدار؟ يجيب الكاتب بأن الانفراط العظيم الذي حدث في المدة التي حددها ليس نهاية المطاف، بل إنه ستكون عودة إلى القيم اللازمة للمجتمع. لماذا؟

لأنه قد حدث مثل هذا الانفراط من قبل في التاريخ الأوروبي والأمريكي، بل وفي اليابان؛ لكنه لم يستمر؛ بل عاد الناس بعده إلى الالتزام بالقيم الضرورية لكل مجتمع إنساني. فهل سيحدث مثل هذا الرجوع إلى تلك القيم الآن كما حدث من قبل؟ يتفاءل الكاتب بأن هذا سيحدث، بل يرى أنه بدأ يحدث فعلاً؛ فمعدلات الزيادة في الجريمة، والطلاق، والأطفال غير الشرعيين، وفقدان

الثقة، بدأت تتباطأ كثيراً في التسعينيات، بل إن بعضها انعكس. كما أنه حدث تحول بقدر مائة وثمانين درجة في آراء الأكاديميين بالنسبة للقيم؛ فهم الآن يقولون: إن القيم وتركيب الأسرة تؤثر تأثيراً كبيراً في ما يحدث في المجتمع. إن فترة تعاظم الفردية قد انتهت، وبعض القيم التي محتها فترة الانفراط بدأت تعود، وبدأت أصوات مؤثرة تنادي بضرورة الانضباط في السلوك وتحمل مسؤوليات الأسرة والأطفال. وهذه الأصوات أشد ما تكون مخالفة لما كان يقوله المعالجون النفسيون للناس في الستينيات والسبعينيات. لقد كانوا ينصحونهم بمماشاة شهواتهم، وأن لا يلقوا بالاً للضوابط الاجتماعية التي تقف في طريق «نموهم الشخصي».

وهو يرى أن هذا الاتجاه سيستمر. لماذا؟ لأن الناس بطبيعتهم حيوانات اجتماعية، وهم ـ إلى ذلك ـ صناع عقلانيون للقيم الحضارية. والفطرة والعقلانية يعين كلاهما على نمو الفضائل العادية مثل: الأمانة، والثقة اللذين يكونان أساس الرأسمال الاجتماعي. ويضرب مثلاً على ذلك بالقيم المتعلقة بالأسرة. لقد حدث تغير هائل بعد الستينيات في القيم التي تضبط سلوك الرجال والنساء فيما يتعلق بالأسرة، تغيرٌ كانت نتيجته الإضرار بمصالح الأطفال: فالرجال عزفوا عن الأسر، والنساء أنجبن بطريقة غير شرعية، والأزواج تفارقوا لأتفه الأسباب، وكثيراً ما تضاربت مصالح الآباء والأبناء؛ فالوقت الذي يُقضى في أخذ الولد إلى المدرسة أو الملعب، يكون على حساب وقت يُقضى في وظيفة، أو مع صديقة، أو في أي نشاط ترفيهي. لكن الوالدين لهم مصلحة فطرية في العناية بأطفالهم، فإذا ما بُيِّن لهم أن سلوكهم هذا يضر بأولادهم، فمن المحتمل أن يغيروا سلوكهم تغييراً يكون فيه عون للأولاد. لكن الوصول إلى مثل هذا القرار العقلاني لا يتأتى آلياً؛ ففي فترة الانفراط العظيم أفرزت الثقافة العامة صوراً

إدراكية أعمت الناس عن رؤية الآثار الضارة لسلوكهم حتى على أقرب الناس إليهم؛ فقد كان علماء الاجتماع يقولون لهم: إن النشأة في أسرة مفككة ليس بأضر من النشأة في أسرة متماسكة. بينما كان المختصون في معالجة المشكلات الأسرية يطمئنونهم بأنه من الأفضل للأطفال أن يتفرق الوالدان بدلاً من أن يبقيا متشاكسَيْن. وقالوا لهم بأن سعادة أبنائكم في سعادتكم، فلا بأس عليكم من أن تقدموا مصلحتكم على مصلحتهم. هذا وكانت الثقافة العامة تصبُّ على الوالدين وابلاً من الأفكار التي تبرز الجنس بطريقة فاتنة، وتصور الحياة العائلية التقليدية بأنها مرتع للنفاق، والقهر والخبث. إن تغيير هذا كله يحتاج إلى نقاش، وحجج، بل وحروب ثقافية.

لكن الكاتب يذكرنا بأن النظام الاجتماعي لا يعاد تكوينه بجهود الأفراد وحدها، بل لا بد من أن تساعد عليه السياسة العامة للدولة، عن طريق قوات الأمن وعن طريق التعليم.

يبدو من هذا الذي ذكره الكاتب أن السبب الحقيقي للانفراط لم يكن في التطور التقني كما تقول نظريته التي بسطها في بداية كتابه، وإنما كان في بعض الأفكار الضالة التي قُدِّمت للناس باسم بعض العلوم فصدقوها. وهذا يعني أنه لو كانت قد شاعت بين الناس أفكار صحيحة فلربما لم يكن للتطور التقني تلك الآثار التي ذكرها. كان بإمكان الناس أن يستفيدوا من حبوب منع الحمل مثلاً من غير أن تشجعهم على الإباحية الجنسية.

يتساءل الكاتب: إلى أي مدى ستستمر هذه العودة إلى القيم؟ من المحتمل - فيما يرى - أن نرى تغيراً في مستويات الجريمة، ومستوى ثقة الناس بعضهم ببعض وبالمؤسسات والحكومات، أكبر مما نرى في القيم المتعلقة بالجنس، والإنجاب، والحياة الأسرية؛ لأن التطور التقني والاقتصادي جعل الرجوع إلى

القيم السابقة بالنسبة لهذه الأخيرة أمراً في غاية البعد؛ لأن الخوف من الحمل قد زال بسبب الحبوب، ولأن الخوف من أن يعيش الطفل غير الشرعي حياة بائسة قد زال بسبب عمل المرأة وبسبب الإعانات الحكومية. وقلة الإنجاب لن تتغير؛ لأن الوالدين يريان أن من مصلحة أولادهم أن لا تكثر أعدادهم.

وما يقوله الكاتب هنا مبني على تصور غالط لمضار العلاقات الجنسية غير الشرعية. إن مضارها ليست محصورة فيما ذكر؛ بل إنها لتؤثر على العلاقة بين الزوجين وتتسبب في الطلاق، وفي اختلاط الأنساب، كما تؤثر على العلاقة بين الوالدين وأبنائهم، بل إن هذه الفاحشة لتؤثر تأثيراً نفسياً سيئاً على كل مرتكب لها.

والفردية التي عدها الكاتب من أسباب الانفراط لا علاقة ضرورية بينها وبين التطور التقني، بل كان بإمكان الناس أن يبقوا على أريحيتهم وهم يتطورون تقنياً.

لكن الذي يرجوه الكاتب هو أن تتغير القيم المتعلقة بعمل المرأة. إن القيم السائدة الآن ـ ولا سيما في البلاد الاسكندنافية ـ تعلي من قدر المرأة التي تعمل، وتنظر باحتقار إلى التي تبقى في البيت. فإذا ما تبين أن عدم بقاء الأم مع أطفالها الصغار ضار بهم فإن هذه القيمة الشائعة الآن قد تتغير فيما يرى. وقد يساعد عصر المعلومات في حل إشكال عمل المرأة بأن يمكنها من أن تعمل من داخل بيتها.

وكما كان للدين تأثير في إعادة بناء المجتمع في الماضي فيتوقع أن يكون له تأثير الآن، لكن الرجوع إلى الدين هذه المرة لن يكون رجوعاً إلى التصديق بالوحي، بل سيكون رجوعاً إليه بسبب تأثيره الحسن على الحياة الاجتماعية.

يبدو أن الكاتب ليس رجلاً متديناً؛ لكنه مع ذلك يعترف في كتابه بما للدين من تأثير فيما سمي بالرأسمال الاجتماعي. فالدين في رأيه هو الذي جعل القيم قيماً إنسانية عالمية، لا قيماً فردية أو أسرية أو قبلية. لكنه يعتقد ـ كما رأينا ـ بأنه من غير المحتمل أن ترجع المجتمعات الحديثة إلى التصديق بحقائق الدين. لكن قيم الدين مبنية على الإيمان بحقائقه؛ فهي تابعة لهذا الاعتقاد ومنبثقة عنه، فإذا ضعف أو انعدم الإيمان بحقائقه ضعف أو انعدم الإيمان بالقيم الخلقية المتصلة به. إن مشكلة الغربيين أنهم يفترضون أن كل ما يصدق على الدين الذي عرفوه يصدق على الأديان الأخرى، فكأن الأديان كلها عندهم دين واحد هو الدين النصراني. ومن البداهة أن هذا ليس بصحيح، وإذن فإن التطور العلمي والعقلاني الذي أدى إلى ضعف الإيمان بالنصرانية لن يؤدي بالضرورة إلى ضعف الإيمان بالإسلام، بل المتوقع أن يؤدي إلى الإيمان به، لما يجده فيه من يعرفه من عدم التناقض مع مقتضيات العقل، أو المخالفة لحقائق العلم. فلماذا لا يكون الرجوع إلى القيم اللازمة للمجتمعات عن طريق هذا الدين الذي لا يجد الشخص المعاصر مشكلة في الإيمان بحقائقه؟ هذا الذي نتوقع أن يحدث: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [**فصلت** : ٥٣].

يختتم المؤلف كتابه بتخوفه على المجتمعات الليبرالية السائدة في الغرب الآن؛ وذلك لسببين:

أولهما: القيم الخلقية الوحيدة التي تقدمها الليبرالية للمجتمع هي قيم التسامح والاحترام المتبادل. لكن حين تتحول هذه القيم إلى عودة إلى التعدد الثقافي بدلاً من التسامح معه، وحين تصل النسبية الخلقية إلى غايتها، فإن الليبرالية تكون قد بدأت تتسبب في انهيار الأرض التي تقف عليها.

وثانيهما: أن التطور قد يجعل الالتزام ببعض القيم عسيراً مع أنها لازمة

للمجتمع، فإذا ما تسارع هذا التطور لم يعط الناس فرصة للتكيف، فتكون النتيجة تأثيراً سيئاً على المجتمعات.

ونختم نحن تعليقنا بتكرار القول بأن في الحقائق التي ذكرها الكاتب ما يؤكد أن علة العلل بالنسبة للمجتمعات الغربية ليست في التطور التقني متسارعاً كان أم متباطئاً، وإنما هي في بعدهم عن الدين الحق الذي يمدهم بالقيم الفاضلة، واستعاضتهم عنه بأفكار قد ثبت الآن بطلانها وعقمها الخلقي. وعليه فلا حل لمشكلة التدهور الخلقي الذي صحب التطور العلمي والتقني إلا في الاستمساك بدين لا تتناقض مقرراته مع الحقائق العلمية ولا تتنافى مع القوانين المنطقية.

والله الهادي إلى سواء السبيل

(٧)
آيات الصيام.. والدعوة إلى الإسلام

(البيان ١٤٥ ـ رمضان ١٤٢٠هـ ـ ديسمبر ـ يناير ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠م)

الإسلام دعوة ومنهاج: دعوة إلى الله، ومنهاج لتبليغ هذه الدعوة، سواءً كان التبليغ لأناس مؤمنين، أو لأناس لم يؤمنوا بعد، ومنهاج البلاغ هذا ليس مبيناً بالوصف فقط كما في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، بل وبالمثال أيضاً. والمثال يكون بالطريقة التي يدعو بها الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ عباده ـ كما سنرى في آيات الصيام ـ وبالطريقة التي يدعو بها الرسلُ أقوامهم، كما في مثل قوله ـ تعالى ـ عن نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ [هود: ٢٥ ـ ٣٤] والتي يدعو بها الذين ساروا على سنتهم من الإنس كما في مثل قوله ـ تعالى ـ عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ..﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٣٤]، بل ومن الجن كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ...﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

ومثل الدعوة في هذا كمثل الصلاة والصيام والحج؛ فكما أننا نعرف الصلاة والصيام والحج معرفة علمية نظرية، ثم نصلي كما عَلِمْنا كيف كان الرسول ﷺ يصلي، ونأخذ عنه مناسك حجنا، فكذلك نعرف طرق الدعوة معرفة نظرية علمية، ثم نعرفها معرفة عملية بمعرفتنا للطرق التي دعا بها أنبياء الله تعالى، ودعا بها سائر عباده الصالحين الذين قص الله ـ تعالى ـ علينا قصصهم في هذا المجال. لكن المسائل التي بُينت لنا طرقُها العملية نوعان: نوع لا يتأتى فعله إلا من العباد كالصلاة والزكاة، ونوع نسترشد فيه إلى جانب ذلك بالطريقة التي

يعامل اللـه ـ تعالىٰ ـ بها عباده، كطريقة الدعوة إليه، وآياتُ الصيام التي هي موضوعنا في هذا المقال خيرُ مثال علىٰ هذا النوع الأخير.

إن الغاية من هذه الآيات هي أمر المسلمين بصيام شهر رمضان، ولو شاء الله ـ تعالىٰ ـ لأمرنا بها أمراً مجرداً لا استعطاف فيه ولا تعليل؛ فهو الرب ونحن عبيده، ومن حقه أن يأمرنا بما شاء، ومن واجبنا أن نطيعه بغير سؤال ولا مراء. لكن الله ـ تعالىٰ ـ أعلم بطبيعة النفوس التي خلقها، وبأحسن الطرق إلىٰ هدايتها وعطفها علىٰ قبول الحق والعمل به. لذلك نراه ـ سبحانه ـ لا يأمر عباده بالصيام أمراً مجرداً بل يسوق كل الحقائق التي من شأنها أن تعطف قلوبهم إلىٰ الخير الذي يأمرهم به.

يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا كُتب عليْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٧] فيخاطبهم بأحب أوصافهم إليهم. وهذا الخطاب وإن كان خطاباً عاماً إلا أنه يجعل المستمع الفرد يُؤَمِّل في الدخول في سلك هـؤلاء الذين شهد الله ـ تعالىٰ ـ لهم بالإيمان. وهل بعد الشهادة الإلهية من شهادة؟ وإذا كان يرجو أن يكون مؤمناً حقاً بعمله بما كتب الله عليه، فما أقل الصيام من ثمن لهذا الإكرام!

﴿كمَا كُتب على الَّذين من قَبْلكُمْ﴾: بما أن الإنسـان قد يتردد في الإقدام علىٰ أمر يراه صعباً ولا يرىٰ لـه فيه سلفاً، فإذا تبين لـه أن الأمر قد جربه أناس قبله، فأغلب الظن أنه سيقول لنفسه: إذا كان الصيام قد كتب علىٰ من قبلنا فصاموا، فما الذي يمنعنا نحن من أن نصوم؟ وإذا لم نكن أول من جرب الصيام بل جربه أناس قبلنا ونجحوا في التجربة، فما الذي يمنعنا نحن من أن ننجح كما نجحوا؟

﴿لعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: فالغاية من الصيام ليست تعذيب الإنسان بمنعه من الطعام والشراب والنكاح، وإنما أتىٰ هذا المنع وسيلة ضرورية لغاية شريفة هي التقوىٰ،

والتقوىٰ هي سبيل النجاة من عذاب الله؛ وهي من ثَمَّ سبيل الفوز بجزائه ومرضاته، ولهذا كانت التقوىٰ هي الغاية التي تحققها كل عبادة من العبادات التي أمرنا الله ـ تعالىٰ ـ بها.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: لم يكلفنا الله ـ تعالىٰ ـ بصيام السنة كلها ولا بأكثرها، وإنما هي ثلاثون يوماً من أيام العام التي تبلغ أكثر من ثلاثمائة وخمسين يوماً. وكلمة ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ تعبِّر عن قلة هذه الأيام. والمؤمن يقول لنفسه: ولماذا لا أصوم أياماً معدودات وأكسب التقوىٰ التي وعد الله بمنحها لمن يصومها؟

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: ولأن الغرض من الصيام هو التقوىٰ لا مجرد تعذيب البدن؛ فإن الله ـ تعالىٰ ـ قد أعفىٰ من صيام هذه الأيام المعدودات من كان مريضاً أو علىٰ سفر؛ لما قد تسببه هاتان الحالتان من مشقة زائدة علىٰ الأمر العادي.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: والأيام المعدودات التي أمرنا الله بصيامها هي أيام شهر لا كسائر الشهور، إنه شهر رمضان الذي شرفه الله ـ تعالىٰ ـ بأن أنزل فيه القرآن، وذلك أنه كما أن الله ـ تعالىٰ ـ أعلم حيث يجعل رسالته بالنسبة للبشر، فهو ـ سبحانه ـ أعلم حيث ينزل رسالته بالنسبة للأزمنة؛ لأنه كما أن بعض البشر أفضل من بعض فإن بعض الأزمنة والأمكنة أفضل من بعض ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. ولهذه المناسبة القوية بين القرآن وشهر رمضان، فإن النبي ﷺ كان يعرض القرآن علىٰ جبريل في كل رمضان، ثم إنه عرضه عليه مرتين في العام الذي توفي فيه ﷺ. ولهذه المناسبة أيضاً فإنه يستحب لنا الإكثار من تلاوة القرآن ولا سيما في صلاة التراويح.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ هذه أهم خصائص القرآن،

الكتاب الذي أنزله الله في شهر رمضان. إنه هدىً للناس، وإنه بينات، بينات من الهدىٰ ومن الفرقان.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ إنها لحكمة بالغة أن تنزل هذه الآية الكريمة ضمن آيات الصيام. إن في الصيام شيئاً من المشقة، ما في ذلك من شك؛ لكن الآية تؤكد لنا أن هذه المشقة ليست مرادة لذاتها، وإنما هي مشقة قليلة محتملة تجلب تيسيراً روحياً كبيراً، هو نيل التقوىٰ؛ فهي إذن ثمن قليل يدفعه الصائم لنيل عوض كبير. ولما كان المراد من أوامر الله ونواهيه كلها هو اليسر لا العسر؛ فقد أذن ـ تعالىٰ ـ بالفطر لمن كان في حال يكون الصيام فيه عليه عسيراً.

لكن اليسر ليس شيئاً متروكاً لأهواء الناس الذين لا يحيط علمهم بكل عواقب الأعمال والتروك، وإنما ينظرون إلىٰ بعض جوانبها دون بعض، وإلا فلو ترك أمر اليسر لتقديرات الناس لقال أكثرهم: إن الصيام عسر لا يسر، وما دام الأمر كذلك وما دامت أوامر الله ـ تعالىٰ ـ ونواهيه مبنية كلها علىٰ اليسر، فإن المنهج الصحيح للاختيار بين آراء المجتهدين هو أن يختار ما دل الدليل علىٰ أنه أقرب للحق؛ لأن ما كان أقرب إلىٰ الحق فهو الأقرب إلىٰ اليسر. أعني أنه لا ينبغي للعالم أن يجعل ما يعتقده يسراً هو المعيار الذي يفضل به اجتهاداً علىٰ اجتهاد؛ لأن ما يظنه يسراً قد يكون في الحقيقة عسراً، بل عليه أن يبذل جهده في النظر في أدلة المجتهدين ليفضل ما كان منها أقرب للحق موقناً بأن ما كان أقرب للحق؛ فهو الأقرب إلىٰ اليسر.

أعاننا الله وإياكم علىٰ صيام شهر رمضان، وجعلنا وإياكم من خير الدعاة إلىٰ الإسلام.

(٨)
الدعوة..ووسائل الاتصال الحديثة

(البيان ١٤٦ـ شوال ١٤٢٠هـ ـ يناير ـ فبراير ٢٠٠٠م)

إن وسائل الاتصال الحديثة آية دالة على صدق النبوة المحمدية، وهي فرصة كبيرة لنشر الرسالة المحمدية، لكنها أيضاً أكبر تحدٍّ يواجه الدعاة إلى هذه الرسالة.

أما كونها آية فلأنها جعلت بلدان العالم كلها بمثابة البلد الواحد الذي كان يرسل إليه كل نبي قبل محمد ﷺ، وفي هذا دلالة على أن الذي أرسل محمداً رسولاً للناس كافة لا لقومه خاصة هو الخالق ـ سبحانه ـ الذي كان يعلم أن العالم كله سيصير بمثابة القرية الواحدة، فلا يحتاج إلى تعدد المرسلين، ولا يحتاج إلى رسول بعد الرسول الذي تعم دعوته شعوب العالم أجمعين. لقد كان هذا التقارب بين بلاد العالم قد بدأ مع مبعث النبي الخاتم ﷺ، لكنه ظل يزداد ويزداد مع تطور وسائل المواصلات والاتصالات، حتى وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا، وربما تشهد العصور التي تلينا تقارباً أكبر، بسبب تطور أكثر في مجال الاتصالات. فمَنْ غيرُ الخالق ـ سبحانه ـ كان يعلم آنذاك أن هذا سيكون؟ إن الترابط بين شعوب العالم الذي أحدثه هذا التطور الكبير في وسائل الاتصال ليس إذن مجرد أمر دنيوي بالنسبة للمسلم، وإنما هو أمر يتصل بصميم عقيدته؛ لأن فيه دليلاً يضاف إلى الأدلة المشيرة إلى صدق رسوله ﷺ.

وأما كونها فرصة لنشر الدعوة فأمر لا يكاد يحتاج إلى بيان. إن الكتب تطبع الآن بأسرع مما كانت تطبع به في الماضي، وتنتشر على نطاق أوسع مما كانت تنتشر به، والكلمات لم تعد تقتصر كتابتها بحبر على ورق، وإنما صارت الملايين منها

تكتب في أقراص مدمجة يسهل حملها، ويسهل الوصول إلىٰ المادة المكتوبة فيها. والكلمة المنطوقة لم يعد ينتهي صوتها بانتهاء النطق بها، وإنما صارت تسجل علىٰ أشرطة مسموعة وأخرىٰ مرئية مسموعة، والرسائل لم تعد تحتاج إلىٰ بريد بالجِمال أو بالسيارة أو الطائرة أو القطار، وإنما صارت ترسل في لحظات عبر الفاكس والبريد الإلكتروني. ثم الشبكة العالمية (الإنترنت) التي تجمع لك هذا كله، أعني: الكتابة والصوت والصورة والإرسال السريع والحفظ. وقد استفاد الدعاة بحمد الله ـ تعالىٰ ـ من كل هذه الوسائل، فسُجِّل كتاب ربنا بأصوات عدد من كبار قرائنا، وسجلت بعض أحاديث الرسول ﷺ، وها نحن اليوم نستمع إلىٰ دروس كبار شيوخنا ومحاضراتهم حتىٰ بعد وفاتهم، وأما الشبكة العالمية فقد استفادوا منها هي الأخرىٰ أيما فائدة، وما تزال المواقع الإسلامية تفتح فيها يوماً بعد يوم، وما تزال المادة الإسلامية المعروضة فيها في ازدياد مطرد. وقد سمعت عن أناس ورأيت أناساً هداهم الله ـ تعالىٰ ـ عن طريق هذه الوسيلة.

وقد كان المسلمون في البلاد الغربية يشكون من أن الصحف والمجلات لا تفتح لهم مجالاً للنشر فيها حتىٰ حينما يكون المقال رداً علىٰ افتراء علىٰ الإسلام، فإذا هم اليوم يكتبون ما يشاؤون علىٰ صفحات هذه الشبكة. لكنني ما زلت أرجو أن يزداد اهتمامنا بها واستفادتنا منها، وأرجو أن يأتي يوم قريب تكون فيه كل المراجع الإسلامية متيسرة فيها، وأرجو أن أرىٰ فيها مقررات في شتىٰ الفنون الإسلامية تأخذ بيد الراغب من المستوىٰ الابتدائي وتتدرج به حتىٰ توصله إلىٰ المستوىٰ الجامعي. وأرجو أن يأتي يوم تتحول فيه جامعتنا الأمريكية المفتوحة، وأختها كلية لندن المفتوحة، إلىٰ جامعة إسلامية عالمية تضاهي الجامعات المفتوحة الكبرىٰ كالجامعة البريطانية التي يبلغ عدد طلابها أكثر من مئتي ألف، أرجو أن يدرك المحسنون، وأن تدرك المنظمات الإسلامية في عالمنا الإسلامي أهمية مثل

هذا التعليم الذي يسمى بـ (التعليم عن بعد)، والذي يصفه بعض رجال التربية الغربيين بأنه نظام المستقبل، فيولونه عنايتهم ودعمهم حتى تكون الدراسة في جامعته مجاناً، وحتى يوفر العلم الشرعي للراغبين فيه أنَّى كانوا على وجه الكرة الأرضية.

وأما كونها تحدياً عظيماً:

فأولاً: لأنها كما يسرت لنا إيصال دعوة الإسلام إلى غير المسلمين، فقد سهلت لغير المسلمين - ولا سيما الغربيين - إيصال دعوتهم إلينا، وبما أن إمكاناتهم المادية هي اليوم أكبر من إمكاناتنا، وبما أن إدراكهم لأهمية هذه الوسائل الحديثة أكبر من إدراكنا فإن ما يوصلونه إلينا يفوق كثيراً ما نوصله إليهم، بل إنهم لا يحتاجون إلى الاقتصار على الخطاب المباشر من الغرب إلى الشرق الإسلامي؛ لأن لهم عملاء في بلادنا هم من بني جلدتنا ويعربون بألسنتنا، ويكتبون في صحفنا، ويتكلمون في إذاعاتنا ويظهرون في قنواتنا، ولا همَّ لهم إلا دعوتنا للسير في ركاب الغرب، في نظمنا السياسية، وأوضاعنا الاقتصادية، وقيمنا الخلقية، ونظرياتنا التربوية، وأساليبنا الأدبية، ونظرتنا التاريخية، بل وتصوراتنا الدينية، يعطون الكلمات العربية والمصطلحات الإسلامية - مثل الأصولية - معاني كلمات غربية ثم يكررونها - بذلك المعنى الغربي - على مسامعنا ليل نهار، واصفين بها كل مستمسك بدينه من الأفراد والدول والجماعات ليُدخلوا في رُوع الناس أن مسلك هؤلاء وطريقهم هو الطريق الشاذ، وأن المسلم المعتدل إنما هو ذلك الشخص الذي يأخذ دينه مأخذ الغربي الليبرالي - أو حتى العلماني - للدين.

وثانياً: لأنها لا تفتأ تذكِّر المسلم بأن أكثر الناس على وجه الأرض ليسوا مسلمين، وأن أقوى دول الأرض سلاحاً واقتصاداً وأكثرها لذلك تأثيراً ليست دولاً مسلمة، بل وأن معظم الدول الإسلامية قد نهجت نهجها العلماني في

نظمها السياسية وقوانينها، وكثير من نواحي حياتها الأخرىٰ. وفي البشر ضعف يجعل من الشاق عليهم مخالفة الأمر الشائع حتىٰ لو كان في نطاق قرية، أو مجموعة محدودة من الناس كما كان الأمر في الماضي، فكيف إذا أصبح مخالفة لأكثر سكان العالم وأكثر دوله؟ إن هذا الضعف قد يصل بالإنسان إلىٰ مجاراة الأكثرية في إنكار أمر هو موقن بأنه حقيقة لا ريب فيها؛ ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ لرسوله موسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿ **فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ** ﴾ [طه: ١٦]، والإنسان قد يدفعه هذا الضعف إلىٰ الضيق بما يعلم أنه الحق إذا رأىٰ الناس يعترضون عليه باعتراضات مهما كانت واهية. ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ لرسوله ﷺ: ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ [هود: ١٢]، إن الله ـ تعالىٰ ـ لا يرسل رسولاً تصده أهواء الناس عمَّا أوحىٰ إليه ربه، أو تحمله اعتراضاتهم علىٰ الكف عن تبليغ بعض ما أنزل الله إليه، لكن في تذكير الرسل بعدم الوقوع في مثل هذا النوع من الضعف دليل علىٰ أنه يقع من غيرهم، حتىٰ لو كان من أتباعهم، وإذا كان الله ـ تعالىٰ ـ يذكِّر رسله بعدم الاستسلام لمثل هذا الضعف فإن غيرهم أولىٰ بأن يُذكَّر ويُذكِّر.

لكن حتىٰ هذه الجوانب التي تبدو ضارة في وسائل الاتصالات الحديثة لا تخلو من نفع فيما يبدو لي، بل يمكن أن يُسْتغَل كثير منها استغلالاً حسناً لمصلحة الدعوة إلىٰ الإسلام، وأرجو أن أبين هذا في مقال قادم بإذن الله وتوفيقه.

(٩)
وسائل الاتصال .. وعلاقتنا بالثقافات الأخرى

(البيان ١٤٨ ـ ذو الحجة ١٤٢٠هـ ـ مارس ٢٠٠٠م)

قلت في مقال شهر شوال: إن وسائل الاتصال الحديثة كما أنها فرصة كبيرة لتبليغ الرسالة المحمدية، فهي أيضاً وسيلة يتخذها غير المسلمين ـ ولا سيما الغربيين ـ لنشر معتقداتهم وتصوراتهم المخالفة لتلك الرسالة. وهذه فتنة، لكن لا حيلة لنا الآن في ردها؛ فماذا نفعل؟ وهل وصول هذه الثقافات شر كله على المسلمين، أو أنه قد ينطوي على بعض الخير؟

لا شك أن في وصولها بعض الخير. ومن هذا الخير:

أولاً: أن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ولمجادلتهم؛ لأن الدعوة تكون أوقع في نفس المدعو إذا كانت مرتبطة بمحيطه الثقافي، ناقدة ومقوِّمة له. نعم! إن في ما يقوله ويعتقده غير المسلم ما هو قبيح ومؤذٍ للمسلم، لكن معرفته مع ذلك مهمة. وهذا كتاب ربنا مليء بحكاية أقوالهم القبيحة، والرد عليها، وتسلية الرسل والمسلمين الذين يتعرضون لسماعها.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾.

[مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ [المائدة : ٦٤] .

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد (٧٨) قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ [هود : ٧٨ ، ٧٩] .

ثانياً : إن في العالم الآن مئات المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية ، وكلها تتلقى أسئلة عن الإسلام كما تتلقى نقداً له ، أو شبهات تثار حوله ، وكل هذا يعطي الدعاة فرصاً ثمينة لتبليغ الدعوة الإسلامية ، وقد اهتدى ـ بحمد الله تعالى ـ عن هذا الطريق ، وما تزال تهتدي أعداد كبيرة من الناس في شتى بقاع العالم .

ثالثاً : إن أخبار المهتدين هؤلاء سواء كانت هدايتهم عن طريق الشبكة أو عن طريق آخر مما يسرُّ المسلم ويزيده إيماناً بدينه وثقة به ، ولا سيما حين يستمع إلى الأسباب التي أخذت بأيديهم للدخول في الإسلام وتفضيله على ما كانوا ينتمون إليه من معتقدات وقيم وثقافات ، والتحول الكبير الذي حدث في نفوسهم وسلوكهم بعد اعتناقهم الإسلام .

رابعاً : بل إن الاطلاع على الحضارة الغربية ، ومعرفة حقيقتها كان سبباً في عودة بعض المسلمين إلى دينهم ، بعد أن كانوا مغترين ببريق تلك الحضارة ، ومبتعدين عن الإسلام . سألت أحدهم ـ وكان سودانياً بمدينة لندن ـ عن سبب

عودته، فقال: إنه قال لنفسه كلاماً فحواه: أنه إذا كان هذا الذي يراه هو نهاية مطاف الحضارة الغربية فإنه مصير لا يريده لنفسه ولا لبلده. وحدثني آخر ـ وكان شاباً من بنغلاديش التقيت به في كاليفورنيا ـ فقال: إنه اكتشف أنه كان مخدوعاً في هذه الحضارة، وأنه كان يتصورها على غير حقيقتها التي اكتشفها في أمريكا، وأنه كان قبل مجيئه إلى الولايات المتحدة يسخر من تقاليد بلده ولا سيما في الزي ويقلد الزي ويقلد كل ما هو أمريكي، لكنه الآن غيَّر رأيه.

والآن ما أكثر المسلمين الذين يريدون الفرار من أمريكا أو أوروبا إلى أي بلد مسلم، خوفاً على أخلاق أبنائهم وعلى دينهم! هذا مع أن الذين لا يعرفون الغرب معرفة هؤلاء يكون أكبر همهم أن يهاجروا إليه، وأن يربوا أبناءهم في مدارسه.

رابعاً: لكن الثقافات الأخرى ـ مهما كانت ـ لا تخلو من بعض الخير، فمعرفتها على حقيقتها تصحح الصورة القاتمة التي يرسمها لها بعض المتدينين عندنا من الذين لم يطلعوا عليها. وجوانب الخير هذه التي يكاد ألا يخلو منها مجتمع بشري هي من بقايا الفطرة الخيِّرة التي فطر الله عليها العباد، وهي التي تمكنهم من رؤية الحق حين يعرض عليهم، وتساعدهم على قبوله حين يعرفونه، وإلا لو كان كل الناس من غير المسلمين لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً لما اهتدى أحد منهم إلى الإسلام ولا عرف قيمته؛ فكما أن الصورة المثالية للحضارة الغربية تفتن بعض الناس فإن الصورة المشوهة لها قد تيئس بعض الناس من هدايتهم.

خامساً: لكن وجود هذا الخير في حضارة كالحضارة الغربية شيء، وتصويرها على أنها المثال الذي ينبغي أن يحتذى في هذا العصر شيء آخر. أذكر أنني نقلت لمجموعة من الأمريكان في أحد المؤتمرات العلمية ما يقوله بعض المفكرين العرب عنهم، وكان مما قلت لهم: إنهم يقولون إنكم تختارون ناخبيكم

على أسس علمية موضوعية، وعلى أساس البرامج التي يقدمونها لكم، فضحكوا حتى ضجت بهم القاعة، كأنني أسمعتهم نكتة من أظرف النكات. وذلك لأنه في الوقت الذي كان يقول فيه بعض المفكرين العرب ما ذكرت، كان هنالك معلق سياسي أمريكي مشهور يقول عن الانتخابات: إنها موسم ترويح أو تسلية. والمعروف أن من بين أسباب اختيار الرئيس: شكله، ونكاته، وجمال زوجه، ولذلك كان أنصار كلينتون يقولون للناخبين ما يقول أصحاب البضائع: اشترِ واحداً وخذ اثنين.

لكن مما لا شك فيه أن لدخول الثقافات الأخرى إلى بلادنا أضراراً كثيرة؛ وذلك أن ما ذكرنا من خيرات الاطلاع عليها ومعرفتها لا يشمل كل مطَّلع عليها من المسلمين، بل قد يكون تأثيرها ضاراً على أغلبهم، ولا سيما صغار السن وقليلي العلم منهم. ومما يساعد على تأثيرها الضار كونها هي الآن الحضارة القوية اقتصادياً وتقنياً، وعسكرياً، والناس ـ كما قيل ـ مولعون بتقليد الغالب. ومما يساعد على التأثير كون إعلامها القوي المتطور يعرضها بصورة جذابة تغري بها.

كيف العمل؟ هذا سؤال كبير، لكن نختصر الإجابة عنه فيما يلي:

يجب أولاً أن نعمل ما استطعنا للتقليل من فرص وصول جوانبها الضارة إلينا، وهي الجوانب المتمثلة في كثير من الأفلام والقصص، والجرائد والمجلات، كما يجب أن نسعى للتقليل من شرها بنقد أباطيلها والرد عليها مقتدين في ذلك بكتاب ربنا كما رأينا في الآيات التي أوردناها. والرد يكون رداً مباشراً على أباطيل معينة، كما يكون ـ وذلك هو المهم ـ بتزويد الناس بقواعد وأصول وأدوات وسائل الإعلام العامة. وأما الرد المباشر فيجب أن يكون عملاً يومياً تقوم به المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، كما تشارك فيه الصحف والمجلات التي تروي لنا أخبار الغرب وأقواله. وتكون الوقاية منها أيضاً بتقديم البديل الذي يغني عنها: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

(١٠)

حقائق العلوم التجريبية.. حقائق شرعية!

(البيان ١٤٩ ـ المحرم ١٤٢١هـ ـ أبريل ٢٠٠٠م)

شاع على ألسنة كثير من إخواننا المتدينين القول بأن الحقائق العلمية (ويعنون بذلك حقائق العلوم الطبيعية) حقائق متغيرة، فما يثبته العلم اليوم ينفيه غداً، وما ينفيه اليوم يثبته غداً. لذلك يجب أن لا يكون لها اعتبار في فهم الحقائق الدينية الواردة في الكتاب والسنة، وأن لا تستخدم دليلاً على الإعجاز العلمي.

لكن إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض؛ وذلك لأن العلوم الطبيعية ـ كما هو معروف ـ منها ما هو حقائق جزئية تقوم عليها أدلة حسية أو عقلية قاطعة، ومنها ما هو حقائق جزئية، أو قوانين عامة تقوم عليها أدلة راجحة لا قاطعة، ومنها ما هو نظريات هي المعرَّضة للتغير، ولا سيما ما كان ذا دليل غير قوي.

فحقائق العلوم التجريبية كلها ـ الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية ـ التي شهد لها الحس أو العقل شهادة قاطعة هي حقائق شرعية. بل إن ما قام عليه منها دليل راجح وإن كان غير قاطع، هي مما يعد ـ بميزان شرعنا ـ علماً يعمل به. فما دليلنا على ذلك؟

دليلنا أولاً أن الشرع قضى بأن كل الحقائق ـ دينية كانت أم دنيوية ـ إنما يكتسبها الإنسان بحسه وعقله. قال ـ تعالى ـ: ﴿ **واللَّهُ أَخْرجكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتكُمْ لا تعْلمُون شيْئًا وجعل لكُمُ السَّمْع والأَبْصار والأَفْئدة لعلَّكُمْ تشْكُرُون** ﴾ [**النحل**: ٧٨].

فإذا كانت الحقائق إنما تكتسب بالحس والعقل، فمن البديهي أن يقال: إن كل ما شهد له الحس والعقل فهو حقيقة، وما لم يشهد له فليس بحقيقة. ولذلك

فإن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ ذم الكفار المنكرين للحقائق المحسوسة ووبخهم. قال ـ تعالى ـ: ﴿ولَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

ونحن نعلم أن أحاديث الآحاد تعتبر علماً مع أن ثبوتها ليس قطعياً كثبوت الأحاديث المتواترة. ومما استُدِلَّ به على أن الظن الراجح يعد علماً قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وذلك لأن علم البشر علماً مباشراً بإيمان شخص لا يكون إلا ظنياً. لكن الامتحان يرجح هذا الظن نفياً أو إثباتاً، ولذلك يبنى عليه هذا الحكم المهم المذكور في الآية الكريمة.

ومعنى ذلك أننا نأخذ ـ كما يأخذ غيرنا ـ بالنظريات العلمية إذا كان ثبوتها راجحاً ولم يكن قطعياً ما دامت لا تتعارض مع نصوص شرعية قطعية.

قد يستغرب بعض القراء قولي بأن ما لم يشهد له الحس والعقل، أو قل: ما لم يأت عن طريق الحس والعقل فلا يعد علماً، ويقولون: أين الوحي إذن؟ وأقول: إن سبب هذا الاعتراض هو خلط يقع فيه كثير من الناس، وقد نبَّهت عليه في كثير من كتاباتي وأحاديثي. الخلط هو عدم التفرقة بين وسائل اكتساب العلم، وهي الحس والعقل، ومصادر العلم، وهي الوحي والخلق؛ فالوحي مصدر للعلم؛ لكننا إنما نعرف أنه وحي بالحس والعقل، وإلا لم يكن لنا معيار نميز به بين النبي الصادق ومدعي النبوة، ولا بين ما هو كلام الله حقاً، وما هو من القول على الله ـ تعالى ـ بغير علم.

أعود إذن إلى قولي بأن حقائق العلوم التجريبية التي تقوم عليها أدلة قطعية

ـ حسية كانت أم عقلية ـ هي حقائق ثابتة لا تتغير. تُرىٰ: هل سيأتي يوم يقول فيه العلماء إنهم كانوا مخطئين في زعمهم بأن الأرض كروية بعدما استطاعوا أن يروها كرة، وأن يصوروها لمن لم يرها؟ هل سيأتي عليهم زمان يكتشفون فيه أن الماء لا يتكون من الهايدروجين والأوكسجين كما يزعمون الآن؟ وهل يجوز لإنسان عاقل أن يكابر في وجود شيء بعدما رأىٰ دليله الحسي؟ إن مثل هذه المكابرة أمر مذموم شرعاً كما أنه مذموم عقلاً، بل إن كل ما هو مذموم عقلاً فهو مذموم شرعاً.

إن إنكار الحقائق الحسية سواء منها ما يشاهده الشخص العادي، أو تثبته العلوم التجريبية ـ طبيعية كانت أم اجتماعية أم نفسية أم غير ذلك ـ هو هدم للشرع؛ لأنه هدم للبراهين الدالة علىٰ صحته، واللازمة للعمل به، والفارقة بينه وبين الدعاوىٰ الباطلة.

إن كتاب الله ـ تعالىٰ ـ مليء بتوجيه الناس إلىٰ التفكر في خلقه، والاستدلال به علىٰ كثير من أصول الدين، كوجود الخالق سبحانه، ومعرفة صفاته، وبعثه لعباده، ومصير المكذبين لرسله.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين ربط بين مظاهر طبيعية وبين الإيمان، وهو ربط لا يتسنىٰ إلا لمن يشاهد هذه الظواهر ويوقن بوجودها، ثم يكون إنساناً ذا عقل، وتفكُّر؛ فأولو الألباب هم الذين ينتقلون من المشاهدة إلىٰ التفكر إلىٰ الإيمان. وانظر إلىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ: **﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ**

الْميّت من الْحيّ ذلكُمُ اللّهُ فأنّىٰ تؤْفكُون (٩٥) فالقُ الإصْباح وجعل اللّيل سكنًا والشّمْس والْقمر حُسْبانًا ذلك تقْديرُ الْعزيز الْعليم (٩٦) وهُو الّذي جعل لكُمُ النُّجُوم لتهْتدُوا بها في ظُلُمات الْبرّ والْبحْر قدْ فصّلْنا الآيات لقوْمٍ يعْلمُون (٩٧) وهُو الّذي أنشأكُم مّن نّفْسٍ واحدةٍ فمُسْتقرٌّ ومُسْتوْدعٌ قدْ فصّلْنا الآيات لقوْمٍ يفْقهُون (٩٨) وهُو الّذي أنزل من السّماء ماءً فأخْرجْنا به نبات كُلّ شيْءٍ فأخْرجْنا منْهُ خضرًا نُّخْرجُ منْهُ حبًّا مُّتراكبًا ومن النّخْل من طلْعها قنْوانٌ دانيةٌ وجنّاتٍ مّنْ أعْنابٍ والزّيْتُون والرُّمّان مُشْتبهًا وغيْر مُتشابهٍ انظُرُوا إلىٰ ثمره إذا أثْمر وينْعه إنّ في ذٰلكُمْ لآياتٍ لّقوْمٍ يُؤْمنُون ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩] .

في الآية الأولىٰ من هذه الآيات الكريمة ربط بين حقائق طبيعية وبين الإيمان لا ينكره إلا المأفوكون. وفي الآية الثانية ربط بين حقائق طبيعية وبين صفتين من صفات الله تعالىٰ. وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة ربط بين حقائق طبيعية وبين العلم والفقه والإيمان؛ فلا يكون عالماً ولا فقيهاً ولا مؤمناً من ينكر هذه الحقائق بعد رؤيتها.

لا يقولن لي معترض بأننا إنما آمنا بهذه الحقائق الطبيعية؛ لأن الله ـ تعالىٰ ـ قررها. كلاًّ! فإن العلم بها سابق للإيمان بالقرآن الكريم ومستقل عنه؛ فهو أمر مشترك بين المسلمين وغير المسلمين. والقرآن الكريم جعل علمنا هذا بها دليلاً علىٰ قدرته وحسن صفاته. فلو كان علمنا بها مبنياً علىٰ تصديقنا بالقرآن لما صلحت دليلاً، ولكان في الكلام دور.

وأنت تجد في الآية الآتية مثل هذا الربط الذي ذكرناه بين الحقائق المشاهدة والبعث، وبينها وبين تصديق الرسول ﷺ: ﴿وهُو الّذي يُرْسلُ الرّياح بُشْرًا بيْن يديْ رحْمته حتّىٰ إذا أقلّتْ سحابًا ثقالاً سُقْناهُ لبلدٍ مّيّتٍ فأنزلْنا به الْماء فأخْرجْنا به من كُلّ الثّمرات كذٰلك نُخْرجُ الْموْتىٰ لعلّكُمْ تذكّرُون ﴾[الأعراف: ٥٧] .

والحقائق الحسية لها تعلق آخر مهم بأصول الدين؛ وذلك من حيث كونها معياراً للتفريق بين الصدق والكذب؛ لأن القول الصادق إنما هو الذي يوافق الواقع ولا يخالفه، فإذا كان الواقع المتحدَّث عنه واقعاً محسوساً، وكان القول مخالفاً له علمنا أن القول كذب. هذه قاعدة بدهية يعرفها كل عاقل. ولذلك فعندما ألَّف الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) كتابه المشهور عن العلوم الطبيعية والتوراة والإنجيل والقرآن ذكر في مقدمته كلاماً فحواه أنه قال لنفسه: ما دام الله ـ تعالىٰ ـ هو خالق الكون فلا يمكن أن يوحي إلىٰ بشر بكلام يخالف الواقع الذي خلقه ويعلمه، ولذلك فإنني سأحاكم هذه الكتب الثلاثة بمعيار الحقائق القطعية التي أثبتتها العلوم الطبيعية، فما وجدته منها مخالفاً لشيء منها علمت أنه ليس من عند الله تعالىٰ. وكانت النتيجة أنه وجد في كتابَي اليهود والنصارىٰ مثل هذه المخالفات، ولم يجد منها شيئاً في القرآن الكريم، بل وجد أن القرآن الكريم سبق العلوم المعاصرة بتقرير بعض الحقائق، ثم جاءت هي مؤيدة لها. فهل نقول لمثل هذا العالم: إن منهجك غير صحيح؛ لأن حقائق العلوم الطبيعية حقائق متغيرة؟

وبمثل هذا المنهج انتقد النصارىٰ الليبراليون إخوانهم الأصوليين. فالليبراليون يقولون: إن كتابهم المقدس لا يمكن أن يكون كله كلام الله كما يزعم الأصوليون، ويستدلون علىٰ ذلك بمواضع فيه جاءت مخالفة لحقائق محسوسة أثبتتها العلوم التجريبية.

ومن غريب ما سمعت في عدم اعتبار الحقائق المحسوسة استدلال بعضهم علىٰ هذا الزعم بحديث: «وكذب بطن أخيك». والحديث كما رواه البخاري في كتاب الطب من صحيحه عن قتادة عن أبي سعيد: «أَنَّ رَجُلاً أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ. فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً. ثُمَّ أَتَىٰ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً. ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً. ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. فقال: صَدَقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ

بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلاً. فَسَقَاهُ فَبَرَأَ»[١].

استدل الزاعم بأن الحقائق المحسوسة لا اعتبار لها في النصوص الإلهية، بقول الرسول ﷺ لهذا الرجل: (صدق الله وكذب بطن أخيك) فكأنه يريد أن يقول: إنه مهما كانت الوقائع مخالفة للوحي فلا اعتبار لها، بل يجب على المؤمن الصادق أن يؤمن بكلام الله ـ تعالى ـ مهما رآه مخالفاً للواقع المحسوس؛ لأن كلام الله ـ تعالى ـ هو الصدق، والواقع ـ كبطن أخ السائل ـ هو الكذب. فكأن هذا القائل يفترض إمكانية مخالفة الوحي للحس أو العقل، وهو افتراض باطل، بل هو طعن في الشرع؛ لأن صدق الكلام إنما يعرف ـ كما ذكرنا ـ بموافقته للواقع، فالمخالف للواقع كذب لا محالة. والرجل إنما جاء للرسول ﷺ طالباً شفاء أخيه من الإسهال، والشفاء أمر محسوس، فلما رأى أن أخاه لم يُشْفَ عاد فسأل. لكن الرسول ﷺ كان موقناً بأن كلام الله حق ـ أي إن العسل لا بد أن يشفيه، وإن بدا الأمر أولاً على غير ذلك. وصدَّق الله كتابَه ورسولَه فشُفِي الرجل، أي إن الحقيقة الحسية جاءت في النهاية موافقة للآية القرآنية. لكن مقتضى كلام أخينا المشكك في الحقائق المحسوسة، أن الرجل لو سقي عسلاً مائة مرة فلم يزده شربه إلا إسهالاً، ولو أن كل مريض شرب عسلاً لم يزده شربه إلا مرضاً، فلا بد أن يؤمن الناس بأن في العسل شفاءً؛ بل الحقيقة أنه لو حدث هذا لكان فيه أكبر دليل على أن القول بأن في العسل شفاءً لا يمكن أن يكون قولاً للخالق سبحانه. فانظر كيف تؤدي الحجج الباطلة بصاحبها إلى الطعن في الدين من حيث يريد هو الانتصار له.

هنالك حديث طريف يدل على أن الرسول ﷺ كان يستدل بالحقائق الواقعية في تقرير المسائل الشرعية. روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٥٢٥٢.

الأَسَدِيَّة أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلا يَضُرُّ أَوْلادَهُمْ»(١).

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: «وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي الْمُرَاد بِالْغِيلَةِ فِي هَذَا الْحَدِيث وَهِيَ الْغَيْل، فَقَالَ مَالِك فِي الْمُوَطَّأ وَالأَصْمَعِيّ وَغَيْره مِنْ أَهْل اللُّغَة: أَنْ يُجَامِع امْرَأَته وَهِيَ مُرْضِع. يُقَال مِنْهُ: أَغَالَ الرَّجُل وَأَغْيَلَ، إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْن السِّكِّيت: هُوَ أَنْ تُرْضِع الْمَرْأَة وَهِيَ حَامِل. يُقَال مِنْهُ: غَالَتْ وَأَغْيَلَتْ. قَالَ الْعُلَمَاء: سَبَب هَمّه ﷺ بِالنَّهْيِ عَنْهَا أَنَّهُ يَخَاف مِنْهُ ضَرَر الْوَلَد الرَّضِيع. قَالُوا: وَالأَطِبَّاء يَقُولُونَ: إِنَّ ذَلِكَ اللَّبَن دَاء وَالْعَرَب تَكْرَههُ وَتَتَّقِيه. وَفِي الْحَدِيث جَوَاز الْغِيلَة فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْهَ عَنْهَا، وَبَيَّنَ سَبَب تَرْك النَّهْي. وَفِيهِ جَوَاز الاجْتِهَاد لِرَسُولِ اللَّه ﷺ، وبه قَالَ جُمْهُور أَهْل الأُصُول. وَقِيلَ: لا يَجُوز لِتَمَكُّنِهِ مِنْ الْوَحْي. وَالصَّوَاب الأَوَّل».

فالحديث يدل على أن سبب ترك النهي هو التجربة، تجربة أمم غير العرب، كانوا يفعلون شيئاً لا تفعله العرب، ولم يضرهم فعله؛ فتجربتهم هذه دليل على أن هذا الفعل لا ضرر فيه، فلا ينهى عنه.

بقي أن نقول: إن الحقائق التجريبية التي يقرها الشرع نوعان: نوع يقره إقراراً عاماً ولا يبني عليه أمراً من أمور العبادات. ونوع يقره ويبني عليه بعض العبادات، فهو شرعي بمعنى خاص. مثال ذلك: أننا نعلم الآن أن ضوء الشمس لا يصلنا إلا بعد ثماني دقائق من مشاهدتنا لها، ونعلم أننا لا نرى الشيء إلا إذا وصلنا ضوؤه. ومعنى ذلك أننا عندما نرى الشمس تشرق أو تغرب تكون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق. هذه حقيقة لا يكذبها الشرع. لكن الشرع بنى

(١) رواه مسلم، ح/ ٢٦١٢.

مواقيت الصلاة على الشروق والغروب كما يظهران للناس، لا على حقيقتهما الفلكية المستقلة عن الرؤية البشرية. لكن ما بُني الشرع عليه هو أيضاً حقيقة علمية، بل هي حقيقة يحسها كل إنسان مبصر.

ومثال آخر: هو ميلاد الهلال ورؤيته. فالميلاد حقيقة علمية تجريبية قطعية كما عرف الناس منذ مئات السنين، وكما أقر بذلك كثير من علمائنا السابقين. لكن الشرع رتب الصيام على الرؤية لا على ميلاد الهلال، ولا على إمكان الرؤية، مع أنها حقائق علمية. ماذا نفعل إذا كنا نعلم أن الهلال لم يولد، ثم زعم أناس أنهم رأوه؟ القاعدة العقلية والشرعية هي أن القطعي مقدم على الظني؛ فما دمنا نعلم يقيناً أن الهلال لم يولد، فإننا نعلم يقيناً أنه لا يمكن أن يُرى، ولذلك نرد شهادة من زعم أنه رآه؛ لأنها ظنية. فالذين يرون الأخذ بالحساب في النفي هم المحقون بحسب هذه القاعدة وإلا وقعنا في ورطة الاعتقاد بأن الحقائق القطعية تتعارض؛ أو أن ما يقرره الشرع قد يخالف ما يقطع به الحس أو العقل.

(١١)
دين الحق والخير والجمال

(البيان ١٥٠ ـ صفر ١٤٢١هـ ـ مايو ـ يونيو ٢٠٠٠م)

الإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأنه حق كله، وخير كله، وجمال كله؛ فلا باطل فيه، ولا شر فيه، ولا قبح فيه. وأما ما عداه فيختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر، والجميل بالقبيح. وهو دين الحق والخير والجمال؛ لأنه يوائم بين هذه القيم الثلاث، ويجعل كلاً منها ـ كما ينبغي أن يكون ـ معاضداً للآخر ومعيناً عليه، بينما يجعلها غيره من المذاهب والحضارات والنِّحَل متشاكسة متضاربة، يهدم بعضها بعضاً. يرون في جمال الفنون مسوِّغاً لاتخاذها وسيلة إلى قول الزور، وهدم الفضيلة؛ وفي جمال التعبير ـ شعراً كان أم رواية ـ ما يجعل من حق القائل أن يختلق الأباطيل ويروِّج للشرور، ويجاهر بالفسوق.

والإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأن المعبود الذي يدعونا إليه هو الحق، وهو فاعل الخير، وهو الجميل الذي لا يضاهي جمالَه جمالٌ.

فالله ـ تعالى ـ هو الحق الأعلى الذي لا يقارِب أحقيتَه حقٌّ؛ فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الخالق لكل شيء.

وربنا ـ تعالى ـ خيرٌ مَحْضٌ؛ فالخير كله بيديه، والشر ليس إليه.

وربنا ـ تعالى ـ جميل يحب الجمال.

والرسول ﷺ الذي أرسله إلينا حق، نعرف نسبه، ومولده، ونشأته، وصفاته، بل نعرف عنه ما لا يعرف أحد عن بشر سواه؛ فهو ليس كأولئك الذين يعتقد بعض أصحاب الديانات فيهم، وهم لا يملكون دليلاً تاريخياً حتى

على وجودهم، ودعك من سيرتهم.

وكان رسولنا ﷺ متصفاً بكل صفات الخير، حتى قال عنه ربنا ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وحتى قالت عنه زوجه التي عرفت مداخله ومخارجه: «كان خلقه القرآن»(١). كان صادقاً، أميناً، وفياً، كريماً، رحيماً، شجاعاً، صبوراً، دوَّاراً مع الحق حيث دار، لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان جميل الصورة، جميل الروح، جميل الحديث. وكان لذلك رجلاً مهيباً.

والقرآن الكريم الذي أنزله ـ تعالى ـ كتاب يقول الحق، ويهدي إليه، ويأمر بالخير وينهى عن الشر، ويعبر عن كل ذلك بلغة هي الذروة العليا من الجمال:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

[فصلت: ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. (صدق في الأخبار وعدل في الأوامر والنواهي).

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فهو ليس كالكتب الدينية التي يشك أصحابها في أصولها، وفي ترجماتها، وفي معانيها.

---

(١) رواه أحمد، ح، ٢٣٤٦٠.

وبما أن هذه القيم الثلاث مجتمعة في الإله المعبود، وفي الرسول المبعوث، وفي الكتاب المنزل، فإن أحسن أحوالها أن تكون كذلك متداخلة في حياة البشر.

ولذلك نجدها متداخلة موصوفاً بعضها ببعض في كتاب ربنا وسنة رسولنا ﷺ: فمكارم الأخلاق توصف بالجمال. ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [**يوسف** : ١٨]، ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** ﴾ [المعارج: ٥].

والقول يوصف بالحسن وهو مفهوم جمالي وبه يوصف الفعل: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [**البقرة** : ٨٣]، ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [**النحل** : ١٢٥].

ولا تناقض بين الانتفاع بالشيء وتذوُّق جماله، بل إن هذا الذي ينبغي أن يكون: ﴿ **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**النحل** : ٥ - ٧].

﴿ **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ** ﴾ [**البقرة** : ٦٩].

﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** ﴾ [**النمل** : ٦٠].

وتأمل هذه الآية الكريمة التي يأمرنا الله - تعالى - فيها بالنظر إلى ثمر النبات وينعه: ﴿ **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**الأنعام** : ٩٩]. والنظر إلى الثمر والينع لا ينفك عن رؤية ما فيه من بهجة وجمال. فكما أن خلقه آية، وما فيه من غذاء آية، فجماله أيضاً آية لقوم يؤمنون. وانظر كيف جمع - سبحانه - بين الأمر بالنظر إليه، والأمر بإيتاء زكاته:

﴿ كُلُوا من ثَمَره إِذَا أَثْمر وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَاده ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

والمحظوظ من كانت له زوجة تجمع بين حسن الخلق وجمال المنظر : «إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[١] .

وكما أن هذه القيم يوصف بعضها ببعض فإن ديننا يجعل بعضها وسائل لبعض .

فالدعوة إلى الخير لا تبنى إلا على الحق، ولا تكون إلا مقرونة بالحسن والجمال : فالقصص القرآني أحسن القصص محتوىً وأسلوباً، لكنه كله مبني على الحق، لا على الخيال. إنه يقرر واقعاً ولا يختلق باطلاً ليتوسل به إلى عِبَرٍ أخلاقية أو دينية : ﴿ نحنُ نقصُّ عليْك أحْسنَ الْقصص ﴾ [يوسف : ٣] . ﴿ لقدْ كانَ في قَصصهمْ عبْرةٌ لأُوْلي الأَلْبَاب ما كانَ حديثًا يُفْترىٰ ولَكن تصْديقَ الَّذي بيْن يديْه وتفْصيل كُلِّ شيْءٍ وهُدًى ورحْمةً لِّقوْمٍ يُؤْمنُون ﴾ [يوسف : ١١١] .

والدعوة إنما تكون بالكلام الجميل الذي تأنس به المسامع وترتاح إليه القلوب : ﴿ وَقُولُوا للنَّاس حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣]، ﴿ ادْعُ إلىٰ سبيلِ ربِّك بالْحكْمة والْموْعظة الْحسنة وجادلْهُم بالَّتي هي أحْسنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

لكن بعض إخواننا ـ عفا الله عنهم ـ جعلوا الدعوة إلى أعظم حق وأفضل خير : عبادة الله وحده، والاستمساك بسنَّة نبيِّه ﷺ ـ جعلوها مرتبطة بأنواع من الجفاء والغلظة التي تنفر منها طباع الكرام. ألم يتأملوا قول الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ : ﴿ فبما رحْمةٍ مّن اللَّه لنتَ لهُمْ ولوْ كُنت فظًّا غليظَ الْقلْب لانفضُّوا منْ حوْلك فاعْفُ عنْهُمْ واسْتغْفرْ لهُمْ وشاورْهُمْ في الأمْر ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

يا لله! فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لرسوله الكريم ﷺ : إنك لو أبقيت على كل ما

(١) رواه ابن ماجه، ح/ ١٨٤٧ .

فيك من خصال الخير، ولو بقيت تدعو إلى ما تدعو إليه من حق، لكنك كنت مع ذلك فظاً غليظ القلب لانفض من حولك هؤلاء الذين هم الآن معك. لماذا يا ترى؟ لأنهم أناس كرماء يحترمون أنفسهم، ولا يرضون لها أن تذل حتى من رجل في مثل شخصية الرسول ﷺ. وما كل الناس كذلك؛ بل إن منهم من لا يبقى ويطيع إلا مع الإذلال والهوان. ألم يقل الله - تعالى - عن قوم فرعون: ﴿ فاسْتَخفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسقين ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وصدق القائل:

إذا أنت أكرمتَ الكريم ملكته   وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمردا

ودعوة الحق إنما يصلح لها هذا النوع من كرام الناس. إنهم هم الذين يصدقون فيها ويتحملونها بقوة وشجاعة. فليكونوا هم إذن طَلِبَتَنا حين ندعو؛ ولندعهم لذلك بطريقة تليق بهم، فتجمعهم حولنا ولا تنفرهم منا. أما اللئام الذين يرضون بالهوان فلا خير فيهم، ولا رجاء منهم.

في مقابل هؤلاء أناس تذرعوا بلين الكلام وخفض الجانب ليوقعوا الناس في مهالك الشرك والابتداع. والسعيد من وفقه الله - تعالى - للدعوة إليه بالتي هي أحسن.

الجمال إذن محمود ومرغوب فيه، وهو قرين الحق والخير. فأما حين يكون مَظِنَّةً لأن يُتَّخَذَ وسيلة لهدم المكارم فإن الإسلام يمنع الاستمتاع به. ولذلك فإنه يحرِّم النظر إلى بعض الصور الجميلة، والاستماع إلى بعض الأصوات الجميلة حين يكون ما فيها من جمال ذريعة إلى شرك أو هدم مكارم. ولهذا حرَّم النظر إلى زينة النساء لغير محرم أو زوج؛ لأن الاستمتاع بجمالهن قد يكون وسيلة إلى هدم الفضيلة. وأباحه للمحارم؛ لأن هذه العلة منتفية في حقهم، وأباحه للأزواج، بل ودعاهم إليه؛ لأنه استمتاعٌ حلال، وقد يكون وسيلة إلى الامتناع عن الحرام.

وكذلك الأصوات الجميلة قد يرتبط جمالها بخاصةٍ فيها، أو في المستمتع بها، تثير مشاعر الرذيلة، أو تكون ملهية عن فضيلة. فخضوع النساء بالقول قد يثير الطمع فيهن وإن كن أزواج نبي، ولذلك مُنِعْنَ منه: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**﴾ [**الأحزاب**: ٣٢].

وقل مثل ذلك عن المعازف وأنواع من الغناء. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [**لقمان**: ٦].

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «هو ـ والله ـ الغناء».

فالحمد لله الذي هدانا للحق، وسهّل لنا سبل الخير، ومتعنا بجمال الكلام، وجمال الخلق، وجمال المعاني.

(١٢)

دين لا تكفير فيه ليس بدين

(البيان ١٥٢ ـ ربيع الثاني ١٤٢١هـ ـ يوليو ٢٠٠٠م)

في عالمنا الإسلامي ـ العربي منه وغير العربي ـ مخلوقات غريبة تريد أن تجمع بين المتناقضات ولا تريد مع ذلك أن يعترض على تناقضها معترض. يريدون أن يقولوا لإخوانهم الذين كفروا من أهل الغرب إنما نحن مثلكم ننتقد الدين كما تنتقدون، ولا نلتزم به كما أنكم لا تلتزمون، ولا نترك فرصة للسخرية منه ومن المستمسكين به إلا اهتبلناها كما تهتبلون، ونرى كما ترون أن من حق الأديب والفنان أن ينتقد قيم المجتمع ومعتقداته ويدعو إلى نبذها؛ لأنه لا يكون أديباً أو فناناً مبدعاً إلا إذا فعل كل هذا بحرية كاملة كما تفعلون.

لكن الفرق بين مخلوقاتنا العربية الممسوخة المقلِّدة هذه وبين من هم أسوة لهم من إخوانهم الذين كفروا في الغرب، أن أولئك إذا قيل للواحد منهم: إنك كافر بالمسيحية أو اليهودية اعترف بهذا وعده من تحصيل الحاصل. لكن مخلوقنا الممسوخ يرتجف ويُوَلْوِل ويطلب النجدة إذا قيل عن كلام كتبه هو أو أحد من شاكلته: إنه كفر وخروج عن دين الإسلام. إنه يريد أن يكون كافراً حقاً، لكنه يرتعد حين يوصف بالكفر المعبر عن تلك الحقيقة. يريد أن يكون كافراً لكنه يريد أن يعيش في أمن، وأن يكون ذا سمعة حسنة في المجتمع الذي يتنكر لأحسن ما فيه من معتقدات وقيم، ويريد ـ شأن كل منافق ـ أن يتخذ من انتمائه للإسلام حصناً لهدمه. وهيهات.

وهو حين يواجه هذا الخطر على نفسه وعلى سُمْعَته يتحول إلى واعظ يذكِّر من رموه بتهمة الكفر بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

الْحسنَة وجَادلْهُم بالَّتي هي أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهي الآية التي يكاد الواحد منهم ألا يحفظ من كتاب الله ـ تعالىٰ ـ غيرها، يحفظها ليحتمي بها بعد أن يحرِّف معناها ويؤوّلها علىٰ غير تأويلها. نعم نحن مأمورون بأن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة! لكن الذي نحن مأمورون بالدعوة إليه هو سبيل ربنا، وهو أمر واضح المعالم، بيِّن الحدود. فنحن نفهم السبيل إلىٰ الدعوة بالتي هي أحسن؛ لكننا لا نفهم من الدعوة بالحكمة وبالتي هي أحسن أن نميع حقائق هذا الدين، أو أن نطمس معالمه، أو نزيل الحدود التي تميزه عن غيره فيكون شيئاً هُلامياً لا يُعرف أوله من آخره، ولا يُعثر فيه علىٰ ما يميزه عن غيره، فلا يمكن لذلك أن يحكم علىٰ إنسان بأنه داخل فيه أو خارج عنه. وما هكذا يكون الدين المنزل من عند الله، بل ما هكذا يكون أي مذهب: حقاً كان أم باطلاً. لا بد لكل مذهب من معالم تحدد هويته، وتميزه عن غيره، حتىٰ يقال عن إنسان إنه منتم إليه أو ليس بمنتم، وإنه مؤمن به أو كافر به. إن المذهب الذي ليس فيه ما يميزه عن غيره ليس بمذهب.

والإسلام دين منزل من عند الله مرتكز علىٰ مجموعة من الحقائق، من آمن بها كان مسلماً، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافراً. فإمكانية الحكم علىٰ إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين. فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين؛ لأنه لا هوية له. إذا لم تكن للدين هوية ولم تكن له معالم فإلىٰ أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؟ والآية الكريمة التي يستدل بها هؤلاء الممسوخون تبطل دعواهم، وتدل علىٰ تحريفهم. وذلك أنها تبدأ كما قلنا بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سبيلِ ربِّكَ﴾، وسبيل الله هو مجموعة الحقائق والقيم المبينة في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ. إنها دعوة إلىٰ توحيد الله ـ تعالىٰ ـ وعدم الإشراك به، دعوة إلىٰ حبه وتقديره حق قدره، دعوة إلىٰ الإيمان برسوله وتعزيره وتوقيره،

دعوة إلىٰ الإيمان بأن ما قرره الإسلام حق لا ريب فيه، وما أمر به عدل لا ظلم فيه ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. فكل قول أو فعل يتناقض مع هذا فهو كفر، وكل قائل به وعامل به علىٰ بصيرة فهو كافر خارج عن ملة الإسلام، روائياً كان أم ممثلاً أم فناناً، ناطقاً بالشهادتين أو غير ناطق.

لكن المخلوقات الممسوخة تريد أن تتستر بكفرها وراء الأدب والفن، فتزعم تارة أننا لم نفهم ما قيل إنه عمل أدبي فني. هكذا قال المدافعون عن سلمان رشدي في آياته الشيطانية في البلاد الغربية، وهكذا يقول المدافعون عن حيدر حيدر في وليمته لأعشاب البحر. وإن المرء ليعجب إذا كان جماهير الناس، بل خاصتهم لا يفهمون القصص والروايات؛ فيا ليت شعري ما ذا يفهمون؟ ثم هل يعقل أن يكتب كاتبٌ قصة لا تفهمها الجماهير؟ إذن من الذي سيشتريها، ومن ذا الذي يقرؤها؟

وتزعم أخرىٰ بأن الفنان لا يحاكم بالمعايير نفسها التي يُحاكَم بها سائر عباد الله. أي إنه من حقه ـ وليس من حق السياسي مثلاً ـ أن يظهر الكفر ويدعو إلىٰ التهتك ما دام يعرض علينا كفره وتهتكه في صورة أدبية أو فنية، وما دام الكلام ليس صادراً منه هو مباشرة، وإنما يقال علىٰ لسان شخصيات روايته أو قصته. فهنيئاً إذن لك فاحشاً بذيئاً؛ إذ ما عليه ـ لكي ينجو من كل محاسبة ـ إلا أن يضع شتمه وبذاءته علىٰ لسان شخصية يخترعها، في قصة أو رواية قصيدة يكتبها.

ماذا يعني هذا؟ أيعني أن الأعمال الفنية إنما هي أشكال لا محتوىٰ لها؟ وأنها إنما يحكم عليها لذلك بشكلها لا بمضمونها؟ هل هذا صحيح؟ هل هذا هو الذي يفعله النقاد في تقويمهم للأعمال الفنية؟ وهل الشكل وحده هو الذي يبتغيه متعاطو هذه الأعمال؟ وهل معنىٰ هذا أنه إذا كان كاتب ذو مواهب فنية رائعة أنه يجوز له أن يكتب قصة فحواها الاستسلام لإسرائيل، وأنه لا يحق للفلسطينيين

ولا غيرهم أن يعترضوا على ما فيها؛ لأنها عمل فني؟ أم أن المحتوى الوحيد الذي لا يجوز الاعتراض عليه هو الاستهزاء بدين الله وتنقُّص أنبياء الله؟

وإذا كان بعض الناس يضعون الجمال الفني فوق الحق وفوق القيم، فما هكذا يرى المسلم المهتدي بكتاب ربه الذي يعلي من قدر الصدق والعدل، ويذم الكذب والجور في أي شكل جاء هذا أو ذاك. ولهذا حكم على الشعر بمحتواه لا بمجرد شكله.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

(١٣)
هيئة الأمم

(البيان ١٥٤ـ شوال ١٤٢١هـ ـ سبتمبر ٢٠٠٠م)

بما أن المسلمين أمة عظيمة من الأمم التي تسكن كرتنا الأرضية، فإنه يهمها أن تعيش في سلام مع غيرها من الأمم، وأن تشاركها وتتعاون معها في الرقي بالمجتمع الإنساني، وفي البحث عن حلول للمشكلات التي تواجهنا جميعاً، طبيعيةً كانت أم سياسية أم اجتماعية. وهيئة الأمم المتحدة منبر من أحسن المنابر لتحقيق ذلك. لكننا نرى أن استمرار هذه المنظمة في أدائها لهذه المهمة العظيمة رهين بإقرارها لثقافات الشعوب المكونة لها، وقيمها وخصوصياتها، وأن تكون وسيلتها للتغيير في المسائل التي تختلف فيها الثقافات والحضارات هي الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن، وألاَّ تتحول إلى أداة تستغلها بعض الدول أو الجماعات لفرض معتقداتها وقيمها، وقمع المخالفين لها.

وعليه فإننا نود أن نؤكد ـ باعتبارنا أمة إسلامية ـ أننا لا نأخذ معتقداتنا وقيمنا من مصادر غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن هذين المصدرين الإسلاميين يمثلان قانوننا الأعلى الذي نحكم به على غيرهما، فنرفض ما يتناقض معه، ونفسر في نطاقه ما نراه موافقاً له. وكما أن هذا الموقف مقتضى ديننا فهو أيضاً مقتضى حرية الدين التي وردت في الإعلان العالمي للحقوق الإنسانية؛ إذ إن هذه الحرية لن يكون لها معنى بالنسبة لنا إذا كان غيرنا هو الذي يفرض علينا كيف نفهم ديننا، وماذا نأخذ منه وماذا ندع، ثم يعاقبنا إذا نحن لم نلتزم بما أَمَرَنا به!

في ضوء ما سبق نقرر رفضنا القاطع لبعض ما ورد في مقررات مؤتمر بكين متعلقاً بالعلاقة الجنسية، ونرى فيه دعوة إلى الإباحية التي لن ينتج عنها إلا مزيد

من التفسخ الخلقي، والتفكك الأسري، وانتشار الأمراض التناسلية، وتعزيز النزعة الفردية، وما يتبع ذلك كله من زيادة في الجريمة، وتهديد لأمن المواطنين وسلامتهم.

لكننا نقر مع ذلك أن المرأة تعاني عالمياً من ظلم يجب أن يرفع عنها، ومن فقر يجب أن يزال، وأن هذا إنما يكون بالتعاون بين الجنسين باعتبارهما مخلوقين بشريين تحركهما الحجج العلمية والدوافع الخلقية. ولن يتحقق أبداً بإثارة جنس على جنس، بل يُخشى أن تؤدي مثل هذه الإثارة إلى صراع تكون المرأة في نهايته هي الخاسرة.

ويسرنا أن نشارك غيرنا من شعوب العالم في حل هذه المشكلات مهتدين بديننا وتجاربنا وتاريخنا، ومستفيدين كذلك من فكر غيرنا وتجربته وتاريخه.

وعليه فإننا في مجال إزالة الفقر ندعو دول العالم وأفراده إلى أن يطبقوا فريضة الزكاة الإسلامية، ولو فعلوا لما بقي على وجه الأرض فقير ذكراً كان أم أنثى. كيف لا، وهي ضريبة سنوية مقدارها ٥ , ٢٪ من رأس المال، تؤخذ من الأغنياء وتوزع على الفقراء، وأن يطبقوا المبدأ الإسلامي الذي يجعل من حق كل إنسان أن يعيش حياة كريمة ما دام المجتمع قادراً على ذلك. ونضم صوتنا إلى المنادين بإزالة الآثار السلبية للعولمة وما ينتج عنها من زيادة فقر الفقراء، واستغلال عمل النساء. ونرى مع غيرنا أن مما يساعد على تخفيف الفقر عن البلاد النامية أن ترفع عنها الفوائد الربوية على الديون التي تقترضها من الدول الغنية؛ فإن هذه الفوائد قد صارت عائقاً لهذه الأمم عن كل نمو اقتصادي.

وفي مجال التعليم نرى أن يشمل التربية الخلقية التي تغرس في المرأة الاعتزاز بما ميزها الله به، وترضى به، ولا تحاول أن تلهث وراء تقليد الرجال ومنافستهم

فيما ميزهم الله به ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ [النساء: ٣٢] وأن يفهم ما يمتاز به كل من الجنسين بأنه وسيلة للتعاون بينهما، وتكميل للواحد منهما بالآخر، وعون على بناء الأسرة واستقرارها، وتحقيق لمصلحة الأولاد.

وفي مجال الموازنة بين عمل المرأة خارج بيتها وبين واجباتها الأسرية نرى أن يطبق المبدأ الإسلامي الذي يلزم الرجل بالنفقة على زوجه وأسرته، ويجعل ذلك حقاً لهم، وأن تعين الدولة كل امرأة تفضل البقاء في بيتها لتربية أولادها وإعانة زوجها. إن عمل المرأة خارج بيتها ينبغي أن يُنظَر إليه على أنه ضرورة اقتصادية لا أمر يقتضيه تكريم المرأة واحترامها.

(١٤)
الأمم المتحدة.. ما حدود صلاحياتها؟!

(البيان ١٥٦ ـ شعبان ١٤٢١هـ ـ نوفمبر ٢٠٠٠م)

أظهرت الجلسة الأخيرة الخاصة للأمم المتحدة قضية يجدر بالدول الأعضاء ـ ولا سيما الإسلامية منها ـ أن توليها قدراً كبيراً من العناية، لما يترتب عليها من آثار خطيرة بعيدة المدى.

سميت الجلسة بالخاصة؛ لأنها إنما عقدت لإجازة «القرارات» التي كان مؤتمر بالصين قد أجازها قبل خمس سنوات. ولذلك سميت الجلسة «بيجن/ ٥»(*) وقد أعطيت المنظمات غير الحكومية فرصة لحضور هذه المناسبة لمناقشة القرارات والتأثير على الممثلين الرسميين، وإن لم يؤذن إلا للقليل جداً منهم بحضور جلسات الجمعية نفسها.

لقد كانت مقررات «بيجن» كلها متعلقة بالمرأة، وكان فيها كثير من الاقتراحات الجيدة والمفيدة، كتلك المتعلقة برفع المعاناة عن الشعوب ولا سيما النساء فيها، وكتلك التي تتحدث عن الجوانب السلبية للعلمنة الاقتصادية. لكن المقررات تضمنت أيضاً دعوة إلى الإباحية الجنسية من شذوذ بين الرجال وشذوذ بين النساء، وأن البنت لها الحرية في أن تتصل بمن تشاء وأن تتزوج من تشاء من غير اعتبار لدين، ولا لرأي أسرة.

كنت فيمن شهد هذه الجلسة فرأيت فيها عجباً أثار في نفسي كثيراً من الآراء والمقترحات للجماعات الإسلامية، أرجو أن أتعرض له في مناسبات أخرى. أما

(*) «بيجن» أي: بكين، وهي عاصمة الصين.

الآن فيكفي أن أقول: إن معظم المنظمات غير الرسمية التي شهدت هذه الجلسة كانت من النوع المتحمس للإباحية الجنسية والداعي لها بقوة، حتى إنك تكاد ألاّ تسمع صوتاً غير أصواتها، وقد بذلتْ جهداً كبيراً ومنظماً في التأثير على الممثلين الرسميين أصحاب القرار. ولولا لطف الله ـ تعالى ـ ثم اعتراض بعض المنظمات الإسلامية ـ وكان من أهمها رابطة العالم الإسلامي ـ والدول الإسلامية لأجيزت هذه التوصيات الإباحية.

لكن عرض هذا الموضوع على هيئة الأمم أثار في ذهني سؤالاً مهماً انتهزت فرصة وجودي في هيئة الأمم للتعبير عنه بين الجماعات الإسلامية، وللكتابة عنه في نشرات رابطة العالم الإسلامي. والموضوع هو: ما حدود صلاحيات الأمم المتحدة؟ قلت: إنه ليس من حق منظمة الأمم المتحدة أن تصدر قرارات في مسائل تتعلق بالمعتقدات والقيم التي يختلف فيها الناس اختلافاً كبيراً. وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إنه بما أن الدول المكونة للأمم المتحدة يختلف كثير منها ذلك الاختلاف الكبير في المعتقدات والقيم؛ فإنه لا يمكن لهؤلاء الأعضاء أن يستمروا متعاونين لمواجهة المشكلات التي تهمهم جميعاً إلا إذا كانوا مستعدين لأن يتعايشوا ويتحمل بعضهم بعضاً رغم هذه الخلافات. إن التغيير في هذه المسائل الجوهرية الأصولية لا يأتي إن أتى ـ وسواء كان إتيانه إلى خير أو إلى شر ـ إلا بالتدرج وبالطرق السلميَّة. لكن الذي نراه الآن هو أن بعض الجماعات الغربية تريد أن تستغل المنظمات العالمية لكي تفرض معتقداتها وقيمها على المجتمعات الأخرى.
وقلت: إنني موقن بأن بعض الدول ـ ومنها الدول الإسلامية ـ لن تنفذ هذه القرارات. وأن هذا سيؤدي إلى عدم احترام قرارات الأمم المتحدة، وربما أدى في النهاية إلى إضعاف المنظمة وعدم فعاليتها.

إننا ـ نحن المسلمين ـ مثلاً لا نأخذ معتقداتنا وقيمنا من الأمم المتحدة أو غيرها من المنظمات، ولا نعدها مصدراً مشروعاً لها، وإنما نأخذها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والغريب الذي لا يعلمه كثير من الناس أن موقف أمريكا شبيه بموقفنا الإسلامي هذا؛ فالدستور الأمريكي والقوانين الأمريكية هي عند الأمريكان فوق كل ما سواها من قرارات واتفاقات، فلا شيء من هذا يصير ملزماً قانوناً إلا إذا أجازته الهيئة التشريعية، وهي لا تملك أن تجيز أمراً مخالفاً للدستور. ولذلك فإن وزيرة الخارجية الأمريكية اعتذرت في خطابها بهيئة الأمم بهذه المناسبة بأن بلدها لم يستطع إجازة مقررات «بيجن» بسبب معارضة بعض الشيوخ!

ونحن نضع كتاب ربنا وسنَّة نبينا ﷺ فوق كل قانون وكل قرار وكل اتفاق، بل ونفسر ما نوافق عليه منها في حدود هذا القانون الأعلى، ﴿**يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تُقَدِّمُوا بيْنَ يدَيِ اللَّهِ ورسُوله واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّه سميعٌ عليمٌ**﴾ [**الحجرات**: ١]، ﴿**وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ وما نهاكُمْ عنْهُ فانتهُوا**﴾ [**الحشر**: ٧].

ثانياً: إن إعلان حقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة يعطي الناس حق الحرية الدينية؛ فماذا يبقى للناس من هذه الحرية إذا أعطت الأمم المتحدة نفسها الحق في أن تفرض عليهم كيف يفهمون دينهم، وماذا يأخذون منه وماذا يدعون، وإلا كانوا معرضين للعقوبات؟ إن المسلم لا يظل مسلماً إذا هو أباح ما حرَّم الله تعالى، وإن من أشد المحرمات في دين الله جرائم الزنا وعمل قوم لوط. فكأن الأمم المتحدة تطلب من المسلمين إذن أن يتخلوا عن دينهم!! كيف يستقيم هذا مع اعتبار الحرية الدينية حقاً من الحقوق الإنسانية التي تدافع عنها الأمم المتحدة؟

إن الدين في المفهوم الإسلامي هو منهاج الحياة الذي يختاره الناس

لأنفسهم، سواء كان هذا المنهاج قائماً على أسس من دين أنزله الله تعالى، أو كان شيئاً اختاره الناس وتصالحوا عليه. فما يسمى بالعلمانية هو بهذا الاعتبار دين، وقرارات «بيجن» هي أيضاً دين. فإذا فرضتها الأمم المتحدة على الشعوب تكون قد أكرهتهم على الالتزام بدين لا يؤمنون به؛ فأين حرية الدين إذن؟!

ثالثاً: ماذا يبقى للدول من سيادة قومية إذا كانت قرارات الأمم المتحدة ستكون فوق ما تقرره الشعوب في أوطانها، حتى لو كانت قراراتها صادرة عن هيئات تشريعية كتلك التي توجد في البلاد الغربية؟ لكن الواقع أن هذا التطاول على السيادة القومية لن يمارس إلا على الشعوب الفقيرة والضعيفة. أما الشعوب الغنية والقوية فلن يجرؤ على مساءلتها أو محاسبتها ومعاقبتها أحد. وهذا يعني أن ما تقرره أو ترضى عنه الشعوب في الدول القوية هو الذي يفرض عن طريق الهيئات العالمية على الشعوب الفقيرة. هذا على افتراض أن الشعوب هي فعلاً التي تقرر. أما في الواقع الذي نراه فإن شعوب تلك البلاد هي نفسها مستغلة ومسخرة لأهواء جماعات أقلية غنية نشطة.

إذا كانت الحكومات القطرية تحدد صلاحيات الحكومة الفدرالية أو المركزية وصلاحيات حكومات الولايات أو الإمارات؛ بحيث لا يجور بعضها على بعض، أفلا يكون من العدل أن تحدد صلاحيات منظمة الأمم المتحدة، وصلاحيات الحكومات القطرية المكونة لها؟!

(١٥)
الحضارة الغربية
ضجة عن الحرية.. وممارسة للهيمنة الثقافية

(البيان ١٥٧ ـ رمضان ١٤٢١هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٠م)

الحضارة الغربية حضارة يبوء كاهلها بالمتناقضات: تناقض في الأفكار، وتناقض في القيم، وتناقض في المواقف، وتناقض بين الأقوال والأفعال. لكنها رغم ذلك كله هي الحضارة السائدة التي يعدها أهلها ويعدها بقية العالم ـ إلا من رحم ربك ـ حضارة العصر، الحضارة التي يجب أن يحذو حذوها كل من يريد أن يتبوأ مكانة محترمة ومقبولة في هذا العصر، وإلا كان فيه بجسده، وخارجَه بروحه وفكره.

ولعل من أبرز أنواع التناقض بين أقوال هذه الحضارة وأفعالها تناقضها بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب، وسلوكها كل سبيل لفرض قيمها الخُلُقية، وتجربتها السياسية، ونظمها الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض، ووصم كل ما يخالفها، بل كل ما يتعارض مع مصالحها، بكونه انتهاكاً للحقوق الإنسانية، أو إضراراً بالمصالح العالمية، أو ممارسة للإرهاب، أو سبباً للتخلف، وما شئت من تهم جائرة، بل ـ وأحيانا ـ أقوال آفكة.

المتعصبون من أهل الحضارة الغربية ضد ثقافات الأمم الأخرى ـ وما كلهم كذلك ـ مصابون بنوع من المرض الثقافي الذي يجعل على بصر صاحبه غشاوة تهول له قيم ثقافته، بل وأباطيلها، حتى يراها هي القيم الإنسانية التي يجب على كل الأمم أن تؤمن بها وتطبق مقتضياتها، بل وهي المعيار الذي تقاس به إنسانية

الأمم، ويحدد على أساسه استحقاقها للمصالحة والمساعدة أو المشاقَّة والإعنات . وقد عبَّر عن شيء من هذا مندوب - أو مندوبة - باكستان في جلسة الأمم المتحدة الخاصة بقضية المرأة . قالت لهم المندوبة كلاماً نقلته بعض الصحف الأمريكية فحواه : أن مشكلة المرأة في باكستان أن تشرب ماءاً نقياً ، لا أن تتزوج امرأة مثلها ، ولا أن تكون لها حرية الاتصال بمن شاءت من الرجال .

هذا موضوع كبير نُشرت فيه أوراق وأُلفت فيه كتب منها كتاب مشهور للأستاذ إدوارد سعيد اسمه : (الاستعمار الثقافي) لكن حديثنا اليوم عن آخر مظهرين شهدهما الكاتب لهذه الهيمنة . أولهما : الاجتماع الخاص بالنساء الذي عقد بالأمم المتحدة والذي تحدثت عنه في مقال سابق . وثانيهما : كتاب لرائدة من رواد الحركة الأنثوية feminism .

من مظاهر الهيمنة الثقافية في اجتماع الأمم المتحدة أن المنظمات غير الحكومية التي شاركت فيه كان أعلاها صوتاً - وربما أكثرها عدداً - المنظمات الآتية من البلاد الغربية . وحتى التي أتت من البلاد غير الغربية كان كثير منها - إن لم يكن معظمها - من الجماعات الدائرة في فلك المنظمات الغربية ، بل ربما كان بعضها مجرد صدىً لها . كان منها - مثلاً - منظمة من بلد من أكثر البلاد الإفريقية فقراً وجوعاً ، لكن مستوى أدائه في الدعاية للقيم الغربية كان مضاهياً لأغنى المنظمات الغربية .

ومن مظاهرها : أن اللغة المسيطرة على الاجتماع كله كانت اللغة الإنجليزية ؛ فالذي لا يعرفها لا يستطيع أن يشارك مشاركة فعالة .

ومن مظاهرها : أن كُبريات المتحدثات كن من الشخصيات الأمريكية المرموقة ؛ فقد تحدثت في اجتماع المنظمات غير الحكومية سيدة أمريكا الأولى ، وخاطبت الجمعية العمومية وزيرة خارجيتها ، وكان معظم المتحدثين والمتحدثات

غير الغربيين من أبواق الغرب، حتى إن عدد المتحدثين والمتحدثات من بلد أفريقي غير الذي ذكرت آنفاً لم يكن متناسباً قط لا مع أهميته ولا مع حجمه.

والقضايا التي أثيرت ونالت اهتماماً كبيراً كانت هي القضايا التي يهتم بها الغرب؛ إما لأنها من القضايا التي تشغل بال الناس فيه، أو لأنها مما يعترض عليه الغرب في ثقافات الآخرين. من ذلك قضية ختان البنات التي حولّها الكُتَّاب والساسة الغربيون وأتباعهم من المستغربين إلى قضية كبرى تكاد تكون من أهم معاييرهم للولاء والبراء.

وهذا يقودنا إلى كتاب الرائدة الأنثوية الذي أسمته: المرأة كاملة، أو المرأة بأكملها The WholeWoman ، تعرضت المؤلفة فيه لقضية الختان هذه، فذكرت أنها كانت وما زالت معترضة على ختان النساء، لكنها بعد أن سافرت واتصلت بالثقافات الأخرى، تبين لها أن اهتمام الغرب به هو تعبير عن احتقاره للثقافات غير الغربية. واستدلت على ذلك بأدلة لا تخلو من طرافة:

منها: أنه لا فرق بين ختان الرجال وختان النساء؛ لكننا لا نعترض على الأول ولا نثير حوله زوبعة؛ لأنه يمارس في الغرب.

ومنها: أن النساء في الغرب يجرين عمليات جراحية تجميلية هي أشد غرابة من الختان. من ذلك العمليات التي تجريها بعض النساء لتصغير أثدائهن. قالت: إنها عندما ذكرت هذا لبعض النساء السودانيات كان استغرابهن له كاستغرابنا للختان، وأنها تعلمت منهن أن الختان أنواع، وأن منه ما لا ضرر فيه، وأنه لا يؤثر على الاستمتاع الجنسي، وأنه ليس أمراً يفرضه الرجال على النساء كما نظن في الغرب.

ومنها: أن بعض الناس في الغرب يخرقون ألسنتهم ليدخلوا فيها نوعاً من

الحلق كالذي يدخل في الآذان. بل إن منهم من يفعل ذلك لعضو الرجل!

لنفترض أن الحديث كان عن أسوأ أنواع الختان، وهو مضر ما في ذلك شك؛ لكن أهو أضرُّ من هذا الذي ذكرته الكاتبة؟ أهو أضر من شرب الخمر الذي يموت بسببه المئات بل ربما الآلاف في الغرب في ليلة واحدة هي ليلة عيد الميلاد؟ أهو أضر من حمل السلاح الذي يرخص به القانون الأمريكي، والذي يُقتل بسببه عدد من الأبرياء ـ وأحيانا الأطفال ـ في كل يوم وليلة؟ أهو أضر من الجمع بين السُّكْر وحمل هذا السلاح؟ أهو أضر من السفور، وما ينتج عنه من أنواع الاغتصاب؟ أهو أضر من الزنا واللواط الذي تُحله القوانين الغربية والذي كان سبباً في مرض الإيدز وأمراض أخرىٰ جسدية ونفسية؟ أهو أضر من التدخين الذي صار من أسباب الموت الأولىٰ في البلاد الغربية، والذي لا مسوِّغ لإباحته إلا استفادة بعض الشركات منه، كاستفادة أخرىٰ من إباحة حمل السلاح؟

كلا والله! ولكن الأمر كما قال ربنا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

إن قوة الغرب المادية صارت فتنة تعمي الناس ـ ومنهم منتسبون إلىٰ الإسلام ـ عن رؤية عيوبه وشروره. كما أن ضعف المسلمين صار فتنة تصد الناس عن رؤية ما عندهم من خير وعن قبوله.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

[الممتحنة: ٥].

(١٦)
مفهوم العقل

(البيان ١٥٨ ـ شوال ١٤٢١هـ ـ يناير ٢٠٠١م)

العقل جزء من الشرع؛ فكما أنه لا عقل كاملاً بلا شرع، فكذلك لا شرع كاملاً بلا عقل، والشرع هو كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فما العقل؟

كان السلف يقولون: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب. فالغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية مِن فَهمْ، وإدراك، وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف إلىٰ آخر ما سنبينه بعد إن شاء الله. هذا العقل الغريزي هو موضوع مقالنا.

العقل الغريزي هذا هو مناط التكليف؛ فمن لا عقل له لا يُكلَّف، ومن فقد بعض مقدراته العقلية؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها.

والذي أعطي عقلاً ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح، ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين، فلا يؤمن به، لكنه يحاسب علىٰ عدم فقهه؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله الاختياري لعقله ﴿**وما كانَ لنفْسٍ أن تُؤْمِنَ إلاَّ بإذْنِ اللَّه ويجْعلُ الرِّجْس على الَّذينَ لا يَعْقلُونَ**﴾ [يونس: ١٠٠].

فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون: ﴿**فمن يُرِد اللَّهُ أن يهْديَهُ يشْرحْ صدْرَهُ للإسْلامِ ومن يُردْ أن يُضلَّهُ يجْعلْ صدْرَهُ ضيِّقًا حرجًا كأَنَّما يصَّعَّدُ في السَّماءِ كذلك يجْعلُ اللَّهُ الرِّجْس علَى الَّذين لا يُؤْمنُون**﴾ [الأنعام: ١٢٥]، الرجس في أصله اللغوي هو النتن، فكأن الآيتين

الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع.

وللعقل في القرآن معان بحسب نوع المعقول ـ أعني نوع الشيء المراد عقله وفهمه ـ من هذه المعاني:

١ ـ فهم الكلام: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾ [يوسف: ٢]. فبيَّن أن السبب في جعله عربياً هو أن يفهمه ويعقله أولئك المتحدثون بهذه اللغة.

٢ ـ عدم التناقض في القول: ﴿**يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون**﴾ [آل عمران: ٦٥]، فالذي يقول: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً كأنه يقول: إن إبراهيم كان سابقاً في وجوده لليهودية والنصرانية لكنه كان أيضاً لاحقاً لهما. وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾ [الأنعام: ٩١] هذا الكلام موجه لليهود الذين يزعمون أنهم يؤمنون بنبوة موسى؛ فكأن الآية الكريمة تقول لهم: إن من التناقض أن تقولوا: إن الله أنزل التوراة على موسى، ثم تقولوا: ما أنزل الله على بشر من شيء.

٣ ـ فهم الحجج والبراهين: ﴿**ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون**﴾ [الروم: ٢٨]، ﴿**قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون**﴾ [يونس: ١٦].

٤ ـ موافقة القول للعمل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ولذلك قال النبي الصالح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. لكن تصحيح هذا التناقض إنما يكون بجعل العمل موافقاً للقول الصحيح لا العكس؛ فالذم في هذه الآية منصب على نسيانهم لأنفسهم لا لأمرهم بالبر؛ لأن الأمر بالبر شيء حسن، ولا يغير من حسنه كون الداعي إليه لا يلتزم به. وقد يأمر الإنسان به بإخلاص وإن لم يعمل به. فالذي يأمر أولاده بعدم التدخين أو عدم شرب الخمر مثلاً، مع فعله لذلك، خير من الذي يأمرهم بالتأسي به في فعله، بل خير من الذي لا يأمرهم ولا ينهاهم.

٥ ـ اختيار النافع وترك الضار سواء كان مادياً أو معنوياً: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٦ ـ التضحية بالمصلحة القليلة العاجلة من أجل مصلحة كبيرة آجلة: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، ويؤيد هذا آيات أخرى لم يرد فيها ذكر العقل، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾.

[التوبة: ٣٨].

٧ ـ استخلاص العبر الصحيحة من الحوادث: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، يشير ـ سبحانه وتعالى ـ هنا إلى قرى قوم لوط

التي قال عنها في آية أخرى مبيناً عدم إدراك الكفار لمغزاها بسبب إنكارهم للبعث: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

٨ـ استخلاص العبر مما جرى في التاريخ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٩ ـ فَهْم دلالات الآيات الكونية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

[النحل: ١٢].

١٠ ـ حسن معاملة الناس ولا سيما الأنبياء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤].

هذه كلها مقدرات عقلية زود الله ـ تعالى ـ بها الناس أجمعين؛ فهم جميعاً يقرون بها، ويرون من عدم العقل ترك الالتزام بها؛ لكن ما كلهم يلتزم في الواقع بها. ولذلك يكفي أن ينبه من خرقها إلى أنه أتى بفعل غير عقلي كما رأينا ذلك في آيات القرآن السابقة.

لكن ينبغي أن ننبه إلى أن بيان القرآن للمسائل العقلية وإقراره لها ليس محصوراً في الآيات التي ذكرت فيها كلمة العقل، فهنالك آيات تذكر فيها كلمات أخرى تشير إلى المقدرات العقلية بذلك المعنى العام الذي ذكرناه، بل إنه

يبدو أن كل سؤال استنكاري في القرآن يدل على أن المسؤول عنه أمر بدهي ما ينبغي لذي عقل أن يماري فيه .

بل إن القرآن الكريم مليء بالآيات التي يمكن أن يتخذها المسلم موازين عقلية . ولعل هذه هي المرادة بالمعنى الثاني لمفهوم العقل، أعني كونه علوماً يهتدي بها الإنسان.

(١٧)
فصل الدين عن الدولة

(البيان ١٥٩ ـ ذو القعدة ١٤٢١هـ ـ فبراير ٢٠٠١م)

أصبحت قضية فصل الدين عن الدولة، أو ما يسميه الغربيون فصل الدولة عن الكنيسة، من القضايا المسلَّم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية. ودعاة فصل الدين عن الدولة قد يعترفون بأن هذا أمر حدث لظروف تاريخية خاصة بالحضارة الغربية، وبالديانة النصرانية؛ لكنهم مع ذلك يرون أنه أصبح أمراً لازماً لكل دولة حديثة، ويسوِّغون هذا بأن الأساس في الدولة الحديثة هو المواطنة، وما دام المواطنون في الدولة الواحدة لا ينتمون في الغالب إلى دين واحد، بل تتقاسمهم أديان متعددة، وقد يكون بعضهم ملحداً لا يؤمن بدين؛ ففي التزام الدولة بدين واحد من هذه الأديان افتئات على حقوق المواطنين المنتمين إلى الأديان الأخرى أو المنكرين لها كلها لأنه:

* يفرض عليهم ديناً لا يؤمنون به.

* ويحرمهم من ممارسة الدين الذي اختاروه إما كله أو بعضه.

* ويحرمهم من حقهم في شغل بعض الوظائف الكبيرة كرئاسة الدولة، وقد يكون سبباً لخلافات ونزاعات عميقة تفقد الدولة معها الاستقرار اللازم لتطورها.

ويرون لذلك أن تكون الدولة دولة علمانية محايدة لا تلتزم بالدين ولا تحاربه ولا تنكره، بل تترك أمره للمواطنين يختارون ما شاؤوا من عقائد، ويلتزمون بما

يريدون من قِيَم، ويمارسون ما يروق لهم من عبادات.

هذه الصورة للعلمانية التي حرصت على أن أجعلها براقة كأشد ما يريد المدافعون عنها أن تكون، تنطوي على افتراضات هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. ومن ذلك:

أولاً: أنها تفترض أن العلمانية يمكن أن تكون محايدة بالنسبة لكل الأديان؛ لكنها لا تكون كذلك إلا إذا كان مجال الدين مختلفاً عن مجال الدولة، أي إذا كان الدين والدولة يعيشان في منطقتين مستقلتين لا تماسَّ بينهما، وأن دعاة الدولة الدينية يقحمون الدين في مجال غير مجاله، ولذلك يضرون به وبالدولة.

فهل هذا الافتراض صحيح؟ إنه لا يكون صحيحاً إلا إذا كان الدين محصوراً بطبعه في بعض المعتقدات وبعض الشعائر التعبدية، وبعض أنواع السلوك الشخصي الذي لا علاقة له بالجماعة، ولا يدخل لذلك في مجال الدولة، لكن الواقع أن هذا الوصف لا ينطبق على أي من الأديان الكبيرة المشهورة: اليهودية والنصرانية والإسلام؛ فما منها إلا وله حكم في العلاقات بين الجنسين، وفي العلاقات الأسرية، والاجتماعية، وفيما يحل أكله وشربه، وما يحرم، وهكذا. وكلها أمور تدخل بالضرورة في مجال الدولة.

كيف حل الغربيون هذا الإشكال؟ حلوه بنوع من المساومة: فهم قد أخذوا بعض القيم النصرانية وجعلوها قوانين للدولة، وهم يجعلون اعتباراً كبيراً لقيمهم الدينية في سياستهم الخارجية، ولا سيما في معاملة الإسلام. لكنهم في الجانب الآخر تركوا أشياء من دينهم، وساعدهم على ذلك تاريخهم المليء بتحريف الدين إما في نصوصه أو في تأويله، ثم جاءت في العصور الأخيرة حركات فكرية تحررية أذاعت القول بأن ما يسمى بالكتاب المقدس ليس كلام الله

تعالىٰ، وأنه من كتابة بشر عاديين تأثروا بالجو الثقافي في المرحلة التاريخية التي عاشوا فيها، ولذلك فإن ما قرره هذا الكتاب في مسائل مثل الشذوذ الجنسي ينبغي ألا ينظر إليها إلا علىٰ أنها قيم مجتمعات سابقة. هذا كلام لا يقوله السياسيون والحكام فحسب، وإنما يقوله كثير من رجال الدين، والمختصين بدراسته، لكن حتىٰ هؤلاء المتحررون يشعر الكثيرون منهم الآن أن العلمانية لم تعد محايدة بين الأديان، بل صارت هي نفسها ديناً يدافع عنه أصحابه ويحاربون به النصرانية، وأذكر أن أحدهم قال لي في أحد المؤتمرات ناصحاً: لا تُخدَعوا كما خُدِعنا، فتظنوا أن العلمانية موقف محايد؛ بل هي الآن دين، أو كما قال ذاك الناصح.

فكيف تُحَل هذه المشكلة بالنسبة لأناس كالمسلمين يرون أن القرآن كلام الله ـ تعالىٰ ـ لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن ما صح من سنة رسول الله ﷺ هو أيضاً وحي الله؟

وكيف إذا كان دينهم لا يقتصر علىٰ ما ذكرنا من أمور تدخل في نطاق الدولة، بل يتعداها إلىٰ أخرىٰ هي من أخص خصائص الدولة؟

ماذا يفعل هؤلاء؟ لا خيار لهم بين الحكم بما أنزل الله ورفض العلمانية، أو الحكم بالعلمانية والكفر بما أنزل الله تعالىٰ.

إن أكثر ما يتعلل به دعاة العلمانية في بلادنا هو اختلاف الأديان في البلد الواحد. يقولون: بأي حق تفرض علىٰ أناس ديناً غير دينهم، وقِيَماً ليست قيماً لهم؟ ماذا إذا لم يكن في البلد إلا مسلمون، أو كان غير المسلمين أفراداً قلائل؟ لماذا يفصل هؤلاء بين دينهم ودولتهم؟

وحتىٰ لو كان المنتسبون إلىٰ غير الإسلام من أصحاب الديانات الأخرىٰ

يمثلون نسباً كثيرة، فإن العلمانية ليست هي الحل العادل؛ لأن أصحاب هذه الديانات إما أن يكونوا في السياسة علمانيين، وإما أن يكونوا ممن يريد للدولة أن تستمسك بعقائده وقيمه وتدافع عنها. فإذا كان من الفريق الأول يكون المسلمون قد تنازلوا عن دينهم بينما هو لم يتنازل عن شيء؛ لأن العلمانية هي مبدؤه سواء كان هنالك مسلمون أو لم يكن.

أذكر أنني قلت ذات مرة لبعض الجنوبيين المثقفين عندنا في السودان: إنكم لا تعترضون على الحكم إذا كان اشتراكياً كما كان الحال في أوائل حكم الرئيس نميري، ولا تعترضون عليه إذا أقر الرأسمالية أو الليبرالية؛ لأنكم تعتقدون أن الدين لا دخل له بهذه المسائل، فلماذا إذن تعترضون على الحكم الإسلامي؟ إن الإسلام لا يفرض عليكم ديناً بالمعنى الذي حصرتم الدين فيه، أعني العبادات والأحوال الشخصية، فلماذا لا تعاملون جانبه السياسي معاملتكم للاشتراكية والرأسمالية؛ لأنه يعطيكم أكثر مما تعطيكم إياه العلمانية؟

يقول أنصار العلمانية في الغرب وفي البلاد الإسلامية: إن هذا قد يكون صحيحاً؛ لكنكم في الحكم الإسلامي تفرقون بين الناس بسبب دينهم، فتمنعون غير المسلم من أن يكون رأس دولة، وأقول لهم دائماً: ولكن العلمانية هي الأخرى تفعل ما نفعل. إنها تشترط على الإنسان أن يكون علمانياً لكي يكون رأس دولة، تشترط عليه أن يؤدي القسم للولاء لدستور يفصل الدين عن الدولة، أي أنها تشترط على المسلم أن يعلن كفره بجزء من دينه. وإذا فعل هذا عن اعتقاد كان كافراً خارجاً عن الإسلام، وإذن فكما أن الإسلام يشترط في رأس الدولة المسلمة أن يكون دائناً بدين الإسلام؛ فإن العلمانية تشترط في رئيس دولتها أن يكون دائناً بدينها، فما الفرق؟

يقولون: لكن العلمانية ليست ديناً. ونقول هذا في مفهومكم أنتم. أما في

لغتنا العربية، وديننا الإسلامي، فإن كل ما يلتزم به الإنسان من عادات وتقاليد، ومن باب أوْلى من قيم وعقائد، هو دينه، سواء كان مبنياً على إيمان بالله أو كفر به. ألم تسمع قول الشاعر العربي عن ناقته:

إذا ما قمت أرحلها بليل	**تأوه آهة الرجل الحزين**
تقول إذا شددت لها وضيني:	**أهذا دينه أبداً وديني؟**
أكل الدهر حل وارتحال؟	**أما يبقي علي وما يقيني؟**

فإذا كان دوام الحل والارتحال ديناً فما بالك باعتياد معتقدات وقيم وسلوك؟ ألم يقل الله - تعالى - عن سيدنا يوسف: ﴿**ما كان ليأْخُذَ أخاهُ في دينِ الْملك إلاَّ أن يشاء اللَّهُ**﴾ [يوسف: ٧٦]. يعني ما نسميه نحن الآن بقانونه؟ العلمانية ليست إذن حلاً لبلد يكون فيه المسلمون أغلبية، بل ولا أقلية معتبرة؛ إذ إن ما تطلبه العلمانية من المسلمين إنما هو التخلي عن دينهم من أجل دين العلمانيين.

(١٨)
النسبية

(البيان ١٦٠ - ذو الحجة ١٤٢١هـ - مارس ٢٠٠١م)

تُطلق النسبية في لغتنا العربية المعاصرة على نوعين مختلفين من النظريات تسمى إحداهما في اللغة الإنجليزية relativity وهي نظرية آينشتاين المشهورة في الفيزياء، كما تطلق على نظرية في الفلسفة والعلوم الاجتماعية تسمى في الإنجليزية: relativism وحديثنا هنا عن الثانية لا الأولى.

النظرية هذه نظرية قديمة حديثة أول من تنسب إليه في تاريخ الفكر الغربي بروتوجراس اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد. ويقول بها مفكرون غربيون معاصرون ولا سيما المختصين منهم بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا. وفحوى هذه النظرية هو أنه ليس هنالك معيار ثابت يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر، بل إن هذه الأحكام أحكام نسبية. ولكن نسبة إلى ماذا؟ هنا يختلف القائلون بهذه النسبية؛ فالغلاة منهم ينسبونها إلى الأفراد، أي إن ما يراه زيد حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة له وإن خالفه في ذلك عمرو وغيره من الناس.

ويرى بعضهم أنها تنسب إلى ثقافة كل مجتمع. والثقافة - culture - عندهم هي منهاج حياة مجتمع من المجتمعات في فترة معينة من تاريخه، وهي تشمل معتقداته، وأنواع سلوكه، ولغته، وتشمل كذلك عاداته وتقاليده وفنونه ومخترعاته وتقنيته وتراثه؛ فما يراه أصحاب كل ثقافة حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة لثقافتهم هذه؛ لأنه ليس هنالك معيار عالمي للحق والخير متفق عليه بين الناس. يقول أحدهم: «كل ما كان من أعراف وعادات زمان ومكان معين فله ما يسوِّغه في ذلك الزمان والمكان»[1] وتقول عالمة اجتماع أخرى: «إن معظم

---

(1) William Graham Summer, as quoted in Harold M. Hodges, Jr. Conflict and Consensus, An Introduction to Sociology, Harper and Row, New York, etc., p. 60.

المجتمعات البشرية تسلك طرقاً مختلفة طلباً لغايات مختلفة؛ فلا يمكن الحكم على وسيلة منها أو غاية بمقاييس مجتمع آخر؛ لأنها غير قابلة للموازنة»(١).

فليس هنالك إذن معيار عالمي تقاس به الثقافات، فيُصَوَّب بعضٌ أو يُخَطَّأ بعضٌ، أو يفضل بعض على بعض. وعليه - يقولون - فلا يحق لأصحاب ثقافة ما أن يحكموا على الثقافات الأخرى بمعايير ثقافتهم؛ بل إن النظرة العلمية المحايدة تقتضي أن تقوَّم كل ثقافة تقويماً داخلياً بمعاييرها هي لا بمعايير أجنبية عنها. فإذا كان الإسكيمو مثلاً يرون أنه من الكرم أن يُعِير الزوج زوجته لغيره، وإذا كانت بعض المجتمعات تقتل الأولاد في المهد، أو تقتل كبار السن لأنهم لا ينتجون، فبأي معيار ننكر عليهم أعمالهم هذه؟

يلاحظ على هذه النظرية ما يلي:

أولاً: كونها من النوع الذي يقال عنه إنه ينقض نفسه؛ لأنه إذا كان كل حكم بالصحة أو البطلان وبالخيرية والشرية إنما هو حكم ذاتي أو ثقافي؛ فإن القول بهذه النظرية هو نفسه حكم ذاتي، أو من إملاء ثقافة معينة، فبأي حق يقال إنه حقيقة عالمية يجب على الناس مراعاتها كما هو ظاهر قول دعاتها؟

ثانياً: أن هنالك قيماً خلقية وأنماط سلوك مشتركة بين الناس جميعاً رغم اختلاف ثقافاتهم وأزمانهم وأماكنهم، كما اكتشف ذلك بعض علماء الأنثروبولوجيا أنفسهم. ويمثلون لهذه القيم باعتبار الكذب والقتل وغشيان المحارم وعدم العدل في المعاملة من الرذائل في كل المجتمعات.

ثالثاً: أن عدم اتفاق الناس جميعاً على معايير للأخلاق وللصدق لا يعني أنه ليست هنالك معايير؛ فوجود المعيار شيء والاتفاق عليه شيء آخر.

---

(١) المرجع السابق والصفحة.

رابعاً: أنه ما من أصحاب ثقافة إلا وهم يحاولون تسويغ قيمهم وسلوكهم بمسوِّغات مستندة إلى معايير. لا أحد منهم يقول: هذا ما نراه وهو حق أو خير لأننا نراه حقاً أو خيراً، بل يحاولون تسويغه استناداً إلى معايير قد يمكن مناقشتهم فيها وبيان خطئهم فيها استناداً إلى معايير عقلانية يشتركون فيها مع سائر الآدميين. خذ وأد البنات عند عرب الجاهلية مثلاً: لقد كانوا يفعلون هذا بحجة خشية الإملاق كما ذكر القرآن الكريم؛ وهم كانوا مع ذلك يؤمنون بالخالق سبحانه، ولذلك أُمكن أن يُناقشوا وأن يتغير موقفهم بعد أن أسلموا وحسنت بالله معرفتهم.

خامساً: أن الواقع المحسوس الذي يؤمن بشهادته كل البشر يدل على كون الشيء حقاً أو باطلاً ليس بالأمر الذي تقرره الأهواء الفردية أو الثقافية. لا يقول آدمي عاقل ـ مهما كانت ثقافته ـ: إن طلوع الشمس مثلاً أمر نسبي؛ فهي طالعة بالنسبة لبعض غائبة بالنسبة لآخرين في نفس الوقت ونفس المكان.

سادساً: حتى لو قلنا بالنسبية فلماذا تكون النسبة إلى أهواء الأفراد وإلى الثقافات؟ لماذا لا تكون إلى أمور يشترك فيها البشر: شهادة الحس، الأدلة العقلية، أو حتى بعض المسوغات الباطلة التي يمكن مناقشة الناس فيها كما ذكرنا في المسألة الرابعة؟

سابعاً: إن البشر كائنات اجتماعية، وهم لا يستطيعون أن يكونوا مجتمعاً متعاوناً مترابطاً إلا بقيم معينة مثل تلك التي ذكرناها آنفاً والتي صار بعض من علماء الاقتصاد والاجتماع يسميها لذلك بالرأسمال الاجتماعي. فالمجتمع كلما كان رأسماله منها كبيراً كان أكثر تماسكاً واستطاع أن يحقق من أهدافه الاقتصادية والسياسية ما لا يحققه مجتمع تفكك بسبب قلة نصيبه من

رأس المال هذا(١).

لكن النسبية ـ برغم بطلانها هذا ـ تنتشر الآن في الغرب، وفي أوساط الشباب خاصة انتشاراً مرَضياً كما تذكر المراجع، وكما سمعنا من شبابنا الذين يدرسون معهم في جامعاتهم. لقد صاروا يعتقدون أن مسائل الأخلاق والأديان كالمسائل الذوقية التي يختلف فيها الناس اختلافاً يرجع إلىٰ أمزجتهم؛ لأنه ليس هنالك من معيار موضوعي لها. وربما كان هذا الإيمان بالنسبية رد فعل للتعصب المقيت الذي كان وما يزال سائداً في بعض الأوساط الغربية التي تجعل من ثقافتها المعيار الوحيد الذي تقاس به أديان الآخرين وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فما اقترب منها إليهم كان أقرب إلىٰ الحق والخير، وما بَعُدَ عنها كان عنهما أبعد. والحقيقة أن العالم الإسلامي، بل كل العالم قد عانىٰ من أمثال هؤلاء، ولا سيما السياسيين منهم، ما لم يعانِ من القائلين بالنسبية؛ وذلك لأن القول بالنسبية ـ وإن كان باطلاً ـ ينتج عنه عادة نوع من التسامح مع المخالف.

لكن النسبية تبقىٰ داءً من أدواء الحضارة الغربية. وقد انتقل هذا الداء، كما انتقل غيره من الأدواء، إلىٰ كثير من مثقفينا في العالم الإسلامي، حتىٰ الإسلاميين منهم. بل إن بعض هؤلاء الإسلاميين صاروا يبحثون للنسبية عن أصول في إرثنا الإسلامي؛ فهم تارة يذكرون قول القائلين من الأصوليين بأن كل مجتهد مصيب، وتارة يستدلون كاستدلال أولئك بقصة الصلاة في بني قريظة، تارة أخرىٰ يذكرون قاعدة تغيُّر الأحكام بتغيُّر الزمان والمكان، ويرون أكبر دليل عليها كون الإمام الشافعي صار له مذهب جديد بعد انتقاله إلىٰ مصر.

(1) Francis Fukuyama, The Great Disruption: Human Nature and the Reconstitution of Social Order, The Free Press, New York, 1999, pp. 18 -19.

الحقيقة أنه ليس في شيء من هذا ما يعضد فكرة النسبية في شكلها الغربي الذي شرحناه.

أولاً: لأن المسلم، بل كل مؤمن بوجود الخالق، يعتقد أن وجود خالقه ليس أمراً نسبياً تابعاً لعقول المؤمنين، بل يعتقد أنه موجود وجوداً مستقلاً حتى عن معرفة الناس به، بل حتى عن وجودهم. أعني أن الخالق موجود حتى لو لم يكن في الوجود إنسان؛ لأن وجوده ـ سبحانه ـ سابق لوجود كل المؤمنين به. فوجوده إذن حق مطلق غير مقيد بشيء، فلا يمكن أن يكون نسبياً. والمسلم يعتقد إلى جانب ذلك أن هذا الخالق مستحق وحده للعبادة حتى لو لم يعبده من البشر عابد. فقضية استحقاقه للعبادة هي أيضاً حقيقة مطلقة غير مقيدة بعبادة العابدين. وكذلك الأمر بالنسبة للفضائل الخلقية من صدق وعدل وأمانة ووفاء، يعتقد المسلم أن هذه فضائل سواء آمن الناس بها أو لم يؤمنوا، وسواء التزموا بها أو لم يلتزموا؛ فقيمتها هي إذن قيمة مطلقة غير منسوبة لا إلى الأفراد ولا إلى الثقافات.

ثانياً: والقائلون بأن كل مجتهد مصيب لا يقولون إن معيار الصواب هو قول المجتهد؛ لأنهم يعلمون أن القاعدة الإسلامية هي أن الحق لا يُعرَف بالرجال؛ فهم ينسبون الإصابة إلى الاجتهاد الذي هو أمر موضوعي مستند إلى أدلة. لكننا لا نستطيع رغم ذلك أن نقول إن كل مجتهد مصيب؛ فماذا لو كانت اجتهاداتهم متناقضة؟ بأن يقول هذا: إن الأمر مشروع، وذاك يقول: إنه غير مشروع؟ أو يقول هذا: إنه واجب أو مندوب، ويقول الآخر: إنه حرام أو مكروه! إن تصويب كل منهم جمعٌ بين النقيضين، وهو أمر لا يقول به عاقل. أما إذا لم تكن الاجتهادات متناقضة فقد تكون كلها صواباً وقد لا تكون.

ثالثاً : أما قصة الصلاة في بني قريظة فأظن أن كثيراً من الذين يستدلون بها على نسبية الصواب لم يفهموا قول النبي ﷺ على وجهه . نعم إن النبي ﷺ لم يخطِّئ الذين صلوا قبل الوصول إلى بني قريظة ، كما أنه لم يخطئ الذين لم يصلُّوا إلا بعد الوصول إليها ؛ فكأنه ﷺ قال : إن الصلاة قبل الوصول إليها مقبولة والصلاة بعد الوصول إليها مقبولة ؛ وهذا أمر لا تناقض فيه ، كما أنه لا تناقض بين القول بأن الصلاة في أول الوقت مقبولة وفي آخره مقبولة . لكن يبقى أمر آخر هو أن الرسول ﷺ وإن صوَّب ما فعله كل من الفريقين إلا أنه لم يصوِّب ظن كل منهما بأن ما فعله الآخر خطأ ؛ فكأنه ﷺ قال لكل منهما : إنك أصبت فيما فعلت ، وأخطأت في تخطئتك لفعل الفريق الآخر . نقول بعبارة أخرى : إن النبي ﷺ لم يصوِّب المذهب الكامل لأي من الفريقين ، وإنما أقر ما في كل منهما من الصواب .

رابعاً : أما مذهب الشافعي الجديد فيكفي في بيان عدم علاقته بالنسبية ، كون الشافعي غيَّر رأيه في مسائل لا علاقة لها بالمكان الذي انتقل إليه ، فلا يمكن أن يكون المكان سبباً فيها . من ذلك أن من تحرى القبلة فصلى ثم تبين له أنه صلى إلى غير القبلة : هل تجب عليه الإعادة؟ قال في القديم : لا تجب . وقال في الجديد : بل تجب . فما علاقة هذا بكونه في مصر أو في الحجاز؟ وإذا كان الشافعي قد غيَّر رأيه في بعض المسائل فكذلك فعل غيره من الأئمة من أمثال الإمام أحمد من غير أن يرحلوا عن المكان الذي هم فيه .

بقي أن نقول : إن هنالك أموراً هي بطبيعتها نسبية ، والناس متفقون على نسبيتها ؛ فما ينبغي أن تختلط بنسبية الحقيقة ونسبية القيم الخلقية التي كانت موضوع هذا المقال . من النسبيات المقبولة نسبية الطول والقصر مثلاً ؛ فوصف الإنسان بالطول والقصر إنما يكون بحسب أطوال غيره من البشر ، بل قد يكون

بحسب الطول المعهود في المكان الذي هو فيه. فالقصير في جنوب السودان قد يكون طويلاً في الصين. لكن هذه النسبية لا تسبب خلافاً كبيراً بين الناس؛ لأنهم في العادة يتفقون على ما يُنسب إليه الأمر. فالإنسان طويل أو قصير بالنسبة إلى البشر لا بالنسبة إلى النخل، وكذلك هو سريع أو بطيء بالنسبة للناس لا للخيول والسيارات، والصلاة خفيفة أو طويلة بالنسبة إلى صلاة النبي ﷺ، لا بالنسبة إلى ما يقدره كل إنسان.

(١٩)
ماذا وراء كسر الحكومة الأفغانية للأوثان؟

(البيان ١٦٢ ـ صفر ١٤٢٢هـ ـ مايو ٢٠٠١م)

ما هذا الذي أقدم على تكسيره الحكومة الأفغانية؟ إنه حجر في صورة إنسان! فلو أن الناس رأوه على حقيقته الظاهرة هذه حجراً في صورة إنسان لما حرص على تكسيره الأفغان، ولا أمر بكسره دين من الأديان. لكن الناس رأوا فيه ما ليس فيه. رأوه إلها وما هو بالإله، ورأوا أنهم يضاهون به خلق الله، ولا أحد يخلق مثل خلق الله. فكان كسره كسراً لهذا التصور المفسد لقلب الإنسان. ﴿وانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

[طه: ٩٧].

فالكسر وسيلة لإقامة الدليل القاطع على بطلان ذلك التصور الفاسد.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨ - ٦٧].

والكسر هذا ليس مختصاً بالتماثيل التي تعبد من دون الله، وإنما هو شامل للبشر الذين يرون أنفسهم آلهة من دون الله، فيصدقهم ضعاف العقول ويتخذونهم فعلاً آلهة من دون الله. وكسر البشر كسران: كسر بالحجة

والبرهان، وإلا فهو كسر ككسر الأوثان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكسر الذين ينصبون أنفسهم آلهة من دون الله هو أيضاً كسران: فكسر قدري يتولاه المولى عز وجل: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾.

[**القصص**: ٣٨ – ٤٠].

وكسر شرعي يقوم به العباد المؤمنون تنفيذاً لأمر الله عز وجل.

فكسر الأوثان ليس إذن بدعة جاء بها خاتم أنبياء الإسلام، وإنما هو سنَّة مطردة دعا إليها وطبقها كل رسل الإسلام. إنها أمر لازم للدعوة إلى إخلاص العبادة لله. إنها سنة ذات جذور عميقة في تاريخ الأديان التوحيدية. وهذا هو الإرث الذي ينبغي أن تحافظ عليه وتعتز به البشرية، لا إرث بوذا وفرعون وهامان.

وقد أشار إلى شيء من هذا كاتب أمريكي منصف في مقال له بجريدة الواشنطن بوست[1] بدأ الكاتب مقاله بنص من التوراة عن تحريق موسى ـ عليه السلام ـ لإله السامري. ثم قال: «إن ما تفعله الأفغان بالتماثيل في أفغانستان يبدو كأنه عمل تدميري لا عقل فيه، بيد أنه ذو جذور عميقة في تقاليد مشتركة

(1) Crispin Sartwell, Saturday, March 10, 2001, page A21.

بيننا وبينهم». ثم ذكر كلمة إنجليزية قال إنها كانت تعني في الأصل محطم الأوثان، لكننا صرنا نتذبذب بين تحطيم الأوثان وعبادة الأوثان. ثم ذكر أن أفلاطون كان يريد منع الفن التصويري؛ لأنه كان يعده خداعاً، وأن النصارىٰ كسروا صور الآلهة الرومانية واليونانية في كل أنحاء الإمبراطورية، وأن المبشرين بالنصرانية فعلوا الشيء نفسه في كل أنحاء العالم. وقد كانت الدعوة الإصلاحية للوثر وكالفن إلىٰ حد ما رد فعل لعبادة الكاثوليك لمريم والأولياء. وقد حطم البروتستانت صوراً كاثوليكية لا حصر لها. ثم قال: «إن تحطيم الأوثان أمر لا يمكن فصله عن التوحيد»، ثم انتقد تحطيم الأفغان لتمثالَيْ بوذا لكنه عاد ليقول: «إن فهم الأفغان للإسلام متصل اتصالاً مباشراً بالفهم السائد لدين موسىٰ».

ثم ذكر ملاحظة طريفة جديرة بالتأمل والاعتبار فقال: «إن الأوثان التي حطمتها الأفغان ليست أصناماً يعبدها البوذيون؛ فالبوذية ماتت في أفغانستان منذ ألف عام. إن الأصنام التي حطموها هي أصنامنا نحن. نحن أهل الغرب العلماني قد استبدلنا ـ إلىٰ درجة ما ـ الفن بالدين. صار الفن عندنا شيئاً مقدساً تجب المحافظة عليه، في مبان أشبه بالقلاع نحج إليه».

ثم قال: «الفن عندنا روحي، خالد، متعال. لقد جعلنا الفن عبادة صنمها العمل الفني. ولذا فإن محطمي التماثيل المحدثين يرعبوننا كما أرعب محطمو التماثيل في العالم القديم عباد الأصنام. لقد بدا أحياناً في الأيام القليلة الماضية أن مشاعرنا يحركها الكرب الذي أصاب التماثيل أكثر من الكرب الذي أصاب شعب أفغانستان. . . . لكن الأفغان يعرفون جيداً كيف يخيفوننا. إنهم يعرفون ديننا، ويعرفون دينهم. إنهم يقومون بعمل هو من صميم دينهم، وفي الوقت نفسه يثيروننا إثارة قصوىٰ بمهاجمة ديننا».

قلت: ذاك تفسير معقول للضجة التي أثارها الغربيون العلمانيون؛ فما بال بعض المسلمين يضجون مثل ضجيجهم؟ حاشاهم أن يكونوا عباداً للأصنام، وهم - حتى لو كانوا علمانيين - لم يصلوا إلى درجة تقديسهم للفن تقديس الغربيين.

ما بالهم إذن؟ أما خيارهم فلا يشكُّون في أن كسر الأصنام عمل مشروع أمر به النبي ﷺ، لكنهم يقولون إن الرسول ﷺ إنما كسر الأصنام العربية بعد أن هزم العرب المناوئين له في ساحة القتال، وبعد أن دانت له الجزيرة العربية ودخلت في الإسلام. لكننا اليوم مستضعفون نخشى أن يثير هذا العمل ثائرة بعض البوذيين فيلحقون الضرر بأرواح المسلمين أو مساجدهم، ونحن نقرأ في كتاب ربنا: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فهذا اعتراض يستند إلى أصل شرعي، وهو لذلك جدير بالاعتبار.

أما غيرهم فقد اتخذوا من الغرب مثالاً يحتذى؛ فحتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه. إنهم يخشون من أن يعيرهم الغرب بأنهم أناس متخلفون غير متحضرين لا يتذوقون الفن ولا يحترمون الآثار.

يقال لهؤلاء وللغربيين العلمانيين من ورائهم: إن كان الفن هو تذوق الجمال وصناعة الجمال فإنه لمقصد مشروع من مقاصد ديننا؛ فالله جميل يحب الجمال. لكن من قال إن الجمال محصور في الصور والتماثيل؟ إن الجمال يكون في السلوك ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[الحجر: ٨٥].

ويكون في التعبير؛ بل إن جمال التعبير هو أرقى أنواع الفنون؛ ونحن أمة كتابها الهادي هو مثلها الأعلى في جمال التعبير، ونبيها رجل أوتي جوامع الكلم.

بل ويكون في الثياب: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ

وريشاً﴾ [**الأعراف**: ٢٦]، **﴿يا بني آدم خُذُوا زينَتَكُمْ عند كُلِّ مسْجد﴾** [**الأعراف**: ٣١]. لكن جمال الحق عندنا فوق كل جمال، وهو المعيار الذي يحكم به على كل دعوى من دعاوى الجمال. فما وافق الحق قبل وما خالفه رد، مهما كان مظهره. وما دامت الحقيقة الكبرى التي يصلح العباد بالاعتراف بها هي أن الله وحده هو المستحق للعبادة؛ فلا يتسامح مع أي فن تعبيري أو تصويري يتناقض مع هذه الحقيقة.

وجمال الخلق هو جزء من جمال الحق؛ فهو كذلك معيار لقبول دعاوى الجمال الأخرى أو ردها.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(٢٠)
ثبت بطلان الجبرية (الجينية)

(البيان ١٦٣ ـ ربيع الأول ١٤٢٢هـ ـ يونيو ٢٠٠١م)

قبل بضع سنوات نظم المنحرفون من الرجال والنساء مظاهرة كبيرة في واشنطن تداعوا لها من بلدان العالم، بدأ على إثرها نقاش طويل عن هذه الظاهرة، فكان مما قاله بعض المبتلين بها إنهم لا يلامون عليها؛ لأنها شيء ولدوا به؛ فهو في جيناتهم الوراثية. وقلنا لإخواننا المسلمين يومذاك: إن هذه الدعوى لا يمكن أن تكون صادقة لأسباب ينبغي أن يسلِّم بها كل مؤمن بوجود الخالق معترف بصفتين من صفات كماله هما: العدل، والحكمة:

فالخالق العادل الحكيم لا يمكن أن يغرس في فطرة الإنسان سلوكاً لا مفر له منه، ثم يجعل ذلك السلوك محرماً عليه، بل يعاقب عليه أشد العقوبات.

والخالق العادل الحكيم إذا غرس شيئاً في فطرة الإنسان هداه إلى أحسن السبل لإشباع رغبته منه. فهو لما جعل الحاجة إلى الطعام في خلق الإنسان أمره بأن يأكل ويشرب ولا يسرف، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث. ولما جعل في الناس ميلاً جنسياً هداهم إلى الزواج وحرم عليهم الزنا، بل فصَّل لهم أحسن الطرق للمعاشرة. فلما حرم فاحشة الشذوذ تحريماً مطلقاً، علمنا أنه ليس لها في الفطرة أصل، ودعك أن يكون الإنسان عليها مجبراً.

ثم إن هذه الفاحشة فاحشة إباحية لا خطام لها ولا لجام، بل إن من شأن أصحابها المستحلِّين لها (لا أقول من كان من أصحابها المؤمنين الذين يعلمون أنها ذنب كبير رغم ابتلائهم بها) أن يغصبوا الناس عليها حتى لو كانوا أطفالاً كما كان قوم لوط يقطعون السبيل ويعتدون على المسافرين، وكما أرادوا أن يعتدوا على

ضيوف نبيهم حين ظنوهم بشراً. فهل يقول صاحب هذه الفاحشة إن الله ـ تعالىٰ ـ جعل في جيناته أن يفعلها مع كل من تميل إليه شهوته من أبناء جنسه؟ إن الميل إلىٰ الجنس الآخر ميل طبيعي، لكنه مع ذلك يمكن كبحه وضبطه، ولا يجوز العدوان فيه، فلماذا يجوز في هذا الميل المنحرف؟

والمسلم المؤمن بكتاب ربه يقرأ فيه قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ [**الأعراف**: ٨٠]. ومن المعلوم أنه قد سبقهم إلىٰ هذه الدنيا أجيال وأجيال من البشر؛ فلماذا لم تفعل الجينات في جيل أو جماعة أو حتىٰ فرد منهم ما فعلت بهؤلاء؟ وممن ورثوها إذا لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؟

قلنا ذلك أو قريباً منه قبل بضع سنين، واليوم يأتينا علماء الأحياء بحجة تقطع دابر دعوىٰ أولئك المنحرفين المجاهرين، وتلجم أفواه دعاتهم. لقد تبين أن الجينات لا سلطان جبرياً لها علىٰ سلوك الإنسان، بل ولا علىٰ كل ما يتعلق حتىٰ بحياته البدنية.

أنا لست من الذين يبتهجون لعجز العلم الطبيعي عن تفسير ظاهرة من الظواهر، أو الذين يعدُّون كل إخفاق للعلم الطبيعي انتصاراً للدين. كلاَّ؛ فإن ديننا هو دين الحق، فلا يضره، بل ينصره كل اكتشاف علمي. لكنني أبتهج حين يخذل التطور العلمي الملحدين والماديين فيثبت بطلان ما تعللوا به من دعاوىٰ وتفاسير ونظريات ينصرون بها عقائدهم الباطلة وأهواءهم الضالة، أو ينالون بها من حقائق الدين المنزل من عند رب العالمين. فليس المقصود من هذا المقال إذن إنكار وجود الجينات أو عملها أو التهوين من أمر دراستها؛ فإنها من جملة آيات الله ـ سبحانه ـ في خلق الإنسان. لكن المقصود هو أن لا تفسر هي ولا شيء من خلق الله ـ تعالىٰ ـ تفسيراً يتناقض مع الحقائق القاطعة المقررة في دينه، والمقصود

أيضاً أن توضع هي وغيرها من الحقائق في وضعها الطبيعي وحجمها الحقيقي الذي تدل عليه الحقائق الطبيعية والتوجيهات الإلهية. وإليك الآن بعض ما نشر من حقائق في هذا الصدد بمناسبة ما سمي بفك شفرة الجينوم.

و «الجينوم البشري ذو حجم في غاية الضآلة ـ توجد نسختان منه مضغوطتان في نواة كل خلية من الخلايا البشرية، والخلية هي نفسها من الضآلة بحيث لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ـ لكنه هائل في ما يحوي من معلومات. . . بحيث إنها لو طبعت طباعة عادية لملأت ٧٥٤٩٠ صفحة من صفحات هذه الجريدة»[1].

كان كثير من الناس يظنون أن هذه المعلومات ـ التي هي بمثابة أوامر لصنع الأشياء الحية ـ هي التي تحتم طبيعة أجسامنا وسلوكنا. لكن الذي ثبت الآن أن الجينات ليست هي وحدها التي تؤثر في طبيعة أجسادنا وسلوكنا، ودعك أن تحتم تلك الطبيعة.

«. . يجب أن تستنتج الآن أن البيئة أهم مما كان يفترض في صياغتها للإنسان».

«إن الجينات لا تتحكم في حياتنا. لكنها مهمة».

من الحقائق الطريفة التي أظهرتها هذه الدراسة الحديثة أنه لا فرق كبير بين الإنسان وأضأل المخلوقات من حيث عدد الجينات. فجينات الإنسان تقدر الآن بثلاثين ألفاً بينما تقدر جينات الذبابة بعشرة آلاف. ولا تزيد جينات الإنسان على جينات الفأر إلا ببضع مئات. ثم إنه لا يكاد يوجد فرق يذكر بين إنسان وإنسان من حيث الجينات؛ إذ إنه لا يعدو الواحد من الألف.

ما الذي يجعل الإنسان إنساناً إذن؟ سأل أحد علماء الأحياء نفسه هذا

(١) (عدد ١٦ فبراير/ ٠١ من جريدة النيويورك تايمز).

السؤال[١]، فقال ساخراً: ما كنا نظن الإنسان إنما هو ثلاث ذبابات، أو فأر وجزء من الفأر. ثم أجاب بأن الذي يميز الإنسان إنما هو وعيه. لكنه خبط خبطاً طويلاً في تفسير كيفية نشوء الوعي من الدماغ.

أما الذي لا يشك فيه المسلم هو أن أهم ما يميز الإنسان إنما هو الروح التي نفخها الله فيه، والتي كان الوعي من آثارها أو أعمالها. لكن المسلم يقول أيضاً: إن الإنسان إن كان لا يتميز كثيراً عن الحيوانات من حيث عدد الجينات، فمما لا شك فيه أنه يتميز عنها حتى في جسده تميزاً مشهوداً: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ [التين: ٤، ٥]. وصدق الله ربنا رب العالمين.

---

(١) (انظر جريدة واشنطن بوست، ص B1، تاريخ ١٨ فبراير من هذا العام).

(٢١)

حوار عن العلمانية الديمقراطية

بين مثقفين عربيين

(البيان ١٦٦ ـ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ ـ سبتمبر ٢٠٠١م)

قال الأول لصاحبه: إنه من حسنات البلاد الديمقراطية العلمانية أنها تعاملنا من حيث الدين معاملة أحسن من معاملتنا لها.

أجاب الأول: من أمثلة ذلك أنهم يسمحون لنا بأن نبني المساجد ونقيم فيها الصلوات، ويسمحون بحرية الدعوة إلى الإسلام بينما لا نسمح نحن لهم بشيء من ذلك في بلادنا.

قال الثاني: أطولاً: إن ما ذكرته عنا ليس بصحيح على إطلاقه؛ ففي العالم العربي والإسلامي نصارى ويهود يمارسون دينهم في كنائسهم وبيعهم في حرية كاملة. ألم تزر بلاداً كمصر والسودان؟

قال الأول: ولكن ماذا عن السعودية؟

الثاني: للسعودية وضع خاص؛ فهي جزء من الجزيرة التي أمر الرسول ﷺ أن لا يكون فيها دين غير الإسلام. وينبغي أن لا يكون هذا أمراً غريباً حتى على الدول الغربية التي أراك تدافع عنها.

الأول: ماذا تعني؟

الثاني: ألم تسمع ببلد اسمه الفاتيكان؟ هل تجد فيه من مساجد أو دور للعبادة غير دور الكاثوليك؟

الأول: كلاً.

الثاني: الأمر الثاني الذي كنت أود أن أنبهك إليه هو أنهم لا يسمحون لنا بما يسمحون بدافع الإحسان إلينا، أو مجاملة لنا كما يظن بعض الذين لا يعلمون، وإلا لقالوا لنا: إما أن تسمحوا لنا بما نسمح به لكم وإلا منعناكم كما تمنعوننا.

الأول: هذا ما كنت أظنهم فاعليه، وقد ازداد تقديري لهم إذ لم يفعلوه.

الثاني: إن ما يسمحون لنا به من قدر من الحرية الدينية هو أمر يسمحون به لكل صاحب معتقد مصدقاً بوجود الخالق أو منكراً لوجوده، مؤمناً كان أم مشركاً، عابد وثن أو عابد بشر. وكما يسمحون بهذا القدر من الحرية الفكرية فإنهم يسمحون بقدر مثله أو أكبر منه لدعاة الرذيلة من الشواذ والزناة وراسمي الصور الفاضحة. يفعلون كل هذا؛ لأنهم يرونه في مصلحة بلادهم بحسب تصورهم للحرية. وأما الأمر الثالث فهو أنهم يستعملون كثيراً من قوانينهم ليحدوا من هذه الحرية سواء لزائريهم من البلاد الإسلامية أو القاطنين فيها.

الأول: أوافقك. ولكن ألا ترىٰ مع ذلك أن نظامهم خير من نظامنا من حيث إن القدر الذي يسمح به من الحرية أكبر مما نسمح به نحن؟

الثاني: كلاً! لست أرىٰ ما ترىٰ؛ لأن الحريات لا تقاس كمّياً، وإلا لكان أحسن النظم هو الذي يترك الناس سدىٰ لا يأمر أحدهم بشيء ولا ينهاه عن شيء ألبتة.

الأول: بِمَ تقاس إذن؟

الثاني: تقاس بمدىٰ نفعها وضررها. فالنهي عن السرقة هو حد من الحرية، لكنه حد مفيد. أما النهي عن أكل السمك مثلاً فهو حد لا فائدة فيه، بل قد يكون ضرره بالغاً بالنسبة لبعض الناس. ولذلك وصفت النواهي الإسلامية بأنها حدود إذا تجاوزها الإنسان وقع فيما يضره. وبإمكانك أن تتصورها كالحدود التي توضع

على جنبتي الجسر؛ فهي أيضاً تحد من حرية السائر أو السائق، لكنها مفيدة له؛ لأنها تمنعه من الوقوع في البحر أو الهوي في واد سحيق.

الأول: لا شك في ذلك. لكن من الذي يصدر هذه القوانين التي تحل وتحرم؟ إن النظام الديمقراطي يكل ذلك للناس؛ فهم الذين يحددون ما يصلحهم وما يضرهم في حرية كاملة. أما النظم الدينية، ومنها النظام الإسلامي، فإنها لا تعطي الناس هذه الحرية، بل تكل الأمر إلى الدين.

الثاني: أتعني أن كل قانون يحل أو يحرم إنما يصدر بإجماع الناس؟

الأول: كلاَّ؛ فأنت تعلم أن الأمر ليس كذلك، وإنما الذي يصدره هم غالبية الناس.

الثاني: لكن غالبية الناس ليست هي التي تصدر القوانين في البلاد الديمقراطية العلمانية، وإنما الذي يصدرها هو المجالس التشريعية.

الأول: نعم! لكن هذه المجالس تتكون من أفراد اختارهم الناس بالأغلبية؛ فهم يعبرون عن أفكارهم.

الثاني: تعني أنهم يعبرون عن أفكار من صوَّت لهم.

الأول: لكن يستحيل واقعاً أن يكون الأمر على غير ذلك.

الثاني: نعم! ولكنك تعلم أيضاً أنه حتى قولنا بأنهم يعبِّرون عن رأي الأغلبية التي انتخبتهم ليس بصحيح؛ لأن هذه الأغلبية لا تستشار، ولو استشيرت لما كان لأغلبيتها رأي في غالبية القوانين؛ لأنها تحتاج إلى معرفة لا تتوفر لهم.

الأول: لكن تبقى مع ذلك الحقيقة بأن هؤلاء قوم رضيهم الناس حكاماً لهم، وأوكلوا إليهم إصدار ما يرونه مناسباً من القوانين.

الثاني: إذن؛ فالناس في البلاد الديمقراطية العلمانية رضوا بأن يكون المشرعون لهم بشراً مثلهم.

الأول: أجل! وهذا ما يمتازون به.

الثاني: واشترطوا عليهم أن تكون تشريعاتهم في إطار الدستور، ولم يتركوهم أحراراً يشرعون ما شاؤوا.

الأول: نعم! لأن الاستقرار السياسي لا يتوفر إلا بشيء كهذا.

الثاني: ما الفرق بيننا وبينهم؟ نحن أيضاً يمكن أن تكون لنا مجالس تشريعية يختار الناس أعضاءها ويعطونهم حق التشريع على شرط أن لا يكون مخالفاً للقانون الأعلى للبلاد الذي يسمى دستوراً. والذي هو بالنسبة لنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الأول: لكن دستورهم هو نفسه من وضعهم، وبإمكانهم أن يغيروا فيه ما شاؤوا.

الثاني: لكن دستورهم أيضاً يتضمن مواد كتلك المتعلقة بما يسمونه حقوق الإنسان ليس لأحد ـ أن يغيرها.

الأول: نعم! لأن هذه حقوق لكل إنسان بما هو إنسان، فلا يجوز لأحد أن يجور عليها.

الثاني: من الذي أعطاها هذه المكانة؟ وعلى كل فأنا لا أريد أن نخرج عن موضوعنا لنتحدث عن حقوق الإنسان، فلعلنا نفعل ذلك في مناسبة أخرى. فلنعد إلى موضوعنا إذن!

الأول: حسن.

الثاني: أردت أن أقول لك إنه ليس لهم علينا فضل في كون دستورهم من اختراعهم؛ لأنه إذا كانوا هم بمحض اختيارهم رأوا أنه من مصلحتهم أن يشرِّع لهم بشر مثلهم؛ فنحن أيضاً فكَّرنا لأنفسنا ورأينا أنه من مصلحتنا أن نرضىٰ بما شرعه لنا ربنا الذي خلقنا، والذي هو أعلم منا بما هو مفسد أو مصلح لنا، والذي هو رحيم بنا لا يأمرنا إلا بما ينفعنا، ولا ينهانا إلا عما فيه ضرر علينا. لا فرق إذن بيننا وبينهم من حيث مبدأ الاختيار. فكما أنهم اختاروا بحريتهم، فنحن كذلك اخترنا بحريتنا، ولم يجبرنا ربنا علىٰ الرضىٰ بما شرع لنا، وإنما ترك الأمر لنا نحن البشر ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ونحن اخترنا بتوفيق من ربنا أن نؤمن. فلا فضل لهم علينا إذن من حيث مبدأ حرية الاختيار، وإنما الفضل لنا نحن الذين أرانا الله الحق حقاً ووفقنا لاتباعه.

الأول: لكن الذي اخترتموه دين، والناس يختلفون في أديانهم، ومجتمعاتنا المعاصرة مجتمعات متعددة الأديان، ولا بد لكل مواطن فيها من أن تكون له حقوق مساوية لغيره بغض النظر عن دينه.

الثاني: فكيف حلت العلمانية هذا الإشكال؟

الأول: حلته حلاً يسيراً، هو أن تُقصَىٰ الأديان عن الحكم حتىٰ يكون لكل مواطن الحق في أن يتقلد أي منصب سياسي من رئاسة الدولة إلىٰ ما دونها مهما كان دينه أو اعتقاده.

الثاني: ونحن أيضا نفعل ما فعلوا: نقصي كل الأديان ـ عدا الإسلام ـ عن الحكم، وكما . . .

الأول ـ مقاطعاً ـ: لكنهم أقصوها كلها ولم يستثنوا منها واحداً كما تفعلون.

الثاني: تعني أنهم أقصوها كلها ما عدا الدين العلماني.

الأول: لكن العلمانية ليست ديناً.

الثاني: أجل! إنها والله لَدينٌ بمفهومنا العربي الإسلامي، لكنها شر دين.

الأول: ما ذا تعني؟

الثاني: أعني أن الدين عندنا هو كل أمر يدين به الناس ويعتادونه ويمارسونه في أي جانب من جوانب حياتهم المادية والروحية سواء كان من عند ربهم أو كان من اختراعهم. ألم تسمع قول الشاعر العربي عن ناقته التي اجهدها بكثرة الترحال:

إذا ما قمت أرحلها بليل — تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا شددت لها وضيني: — أهذا دينه أبداً وديني؟

أكل الدهر حل وارتحال؟ — أما يبقي عليّ وما يقيني؟

الأول: لكنك تعلم أن الشاعر استعمل الدين هنا بمعنى العادة؛ فما علاقة ذلك بأنظمة الحكم؟

الثاني: لا جدال في أنه استعمله بمعنى العادة؛ ولكن ألا ترى أنه إذا كان اعتياد الحل والترحال وهو أمر واحد في حياة رجل وناقته يسمى ديناً، فمن باب أولى أن يسمى كذلك اعتياد ما كان أشمل نطاقاً وأكثر عدداً. ثم إن القرآن الكريم استعمل الدين بهذا المعنى العربي، ألم تسمع قول الله ـ تعالى ـ عن يوسف وأخيه: ﴿**ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله**﴾ [يوسف: ٧٦]، فالمقصود بالدين هنا ما نسميه الآن بالقانون. وفي القرآن الكريم أيضاً يطلق الدين على الهدي الذي أنزله الله ـ تعالى ـ وأرسل به رسوله، كما يطلق على ما يدين به الناس في الواقع سواء كان موافقاً لذلك الدين الحق أو مخالفاً له. يبين لك ذلك بوضوح حديث الرسول ﷺ الذي ذكر فيه أن الله ـ تعالى ـ يبعث لهذه الأمة على

رأس كل مئة عام من يجدد لها دينها؛ فالدين الذي يجدد هو ما يدين به الناس. أما الدين النازل من السماء فلا يحتاج إلى تجديد؛ لأنه لا يَخْلَق. وتجديد ما يدين به الناس هو جعله موافقاً للدين الحق.

الأول: هذا تفسير غريب للدين، وهو مخالف لما اصطلح عليه الناس، ولا سيما في البلاد الغربية العلمانية التي هي موضوع حديثنا.

الثاني: لكن هل من الإنصاف أن يكون النقاش دائماً وفق تصوراتهم ومصطلحاتهم؟ لماذا لا نُفهمهم أن هنالك اختلافاً بيننا حتى في تصورنا للدين؟ على كلٍّ أنا لا أريد للحوار أن يتحول إلى جدل عن الألفاظ. المهم أن تتضح المعاني؛ وإذا اتضحت فلا مُشاحَّة في الألفاظ. ألا يمكن أن نترك كلمة الدين ونستعمل بدلاً عنها كلمة تنطبق على العلمانية وما يسمونه هم ديناً؟ ما رأيك في عبارة منهاج الحياة؟

الأول: لا بأس بها.

الثاني: أرجو أن يتضح لنا من استعمالها أن القول بأن النظام العلماني نظام محايد بين الأديان إنما هو خرافة راجت على كثير من الناس.

الأول: أظنني من المصدقين بهذه الخرافة؛ فهلاً أوضحت لنا يا سيدي المنكر للخرافات دليلك على كونها خرافة؟

الثاني: هب أننا قلنا لإنسان منصف: إن هنالك نظامين (أ) و (ع) وأعطيناه الجدول الآتي:

النظام أ	النظام ع
إنِ الحكمُ إلا الله	إن الحكم إلا للشعب
يباح للرجل أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع	لا يجوز للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة
يأخذ الورثة حقهم أوصى بذلك المورث أم لم يوصِ	إنما يرث من أوصى له المورث ولو كان حيواناً، وإذا لم يوص فللدولة أن تتصرف في ماله
الخمر حرام	الخمر حلال
لا تكون علاقة جنسية إلا بين متزوجين	تباح العلاقة الجنسية بين كل بالغين متراضيين رجلاً وامرأة أو رجلين أو امرأتين
الربا حرام	الربا حلال

الأول: ما أظنه سيستطيع إذا وضع الأمر بهذه الطريقة.

الثاني: ولا طريقة غيرها. إذن فيجب على من يريد أن يكون مسلماً أن لا يخدع نفسه. إنه لا يمكن للإنسان أن يكون مؤمناً ويكون مع ذلك راضياً بالعلمانية نظاماً للحكم. فإما هذا أو ذاك.

الأول: نعم! إن منهاج الحكم العلماني يُقصي غيره من مناهج الحكم؛ لأنك لا يمكن أن تطبق منهجين مختلفين في وقت واحد كما يتضح ذلك من جدولك. لكن ميزته على المناهج الأخرى - ومنها المنهج الإسلامي - أنه يفرق بين إقصاء الأفراد وإقصاء المناهج.

الثاني: ما ذا تعني؟

الأول: أعني أنه يعامل الأفراد جميعاً معاملة متساوية باعتبارهم مواطنين من حق كل واحد منهم أن يتقلد أي منصب سياسي في الدولة إذا ارتضاه الناس.

الثاني : بشرط أن يكون حكمه وفقاً للدستور العلماني الذي يُقصي منهجه عن الحكم إذا كان مسلماً .

الأول : أجل! وأظننا قد اتفقنا على الأمر البدهي الذي يقضي باستحالة الجمع بين منهجين في الحكم مختلفين .

الثاني : لكن معنى هذا أنك تعطي المسلم الأمريكي مثلاً الحرية في أن يكون رئيساً بشرط أن يتخلى عن دينه .

الأول : كلاًّ! فبإمكانه أن يظل مسلماً يصلي ويصوم ويحج ويفعل كل ما يأمره به دينه .

الثاني : إلا في ما يتعلق بالحكم .

الأول : نعم .

الثاني : لكن المسلم المخلص لدينه العارف به لا يرضى بهذا؛ لأنه يعرف أن دينه كلٌّ لا يقبل التجزئة؛ فالذي ينكر بعضه فقد أنكره كلَّه . قال ـ تعالى ـ: **﴿ أفَتُؤْمِنُون بِبعْضِ الْكِتاب وتكْفُرُون بِبعْضٍ فما جزاءُ من يفْعلُ ذلك منكُمْ إلاَّ خزْيٌ في الْحياة الدُّنْيا ويوْم الْقِيامة يُردُّون إلىٰ أشدِّ الْعذاب ﴾** [البقرة : ٨٥] ، وهذا هو الذي يشترطه النظام العلماني على المسلم .

الأول : لكن النظام الإسلامي لا يعطيه حتى هذا القدر .

الثاني : النظام الإسلامي لا يمنع غير المسلم أن يكون مسلماً ، وأن يتأهل بذلك أن يكون حاكماً للمسلمين . لكن الإنسان كما ذكرنا لا يكون مسلماً إلا إذا آمن بالدين كله ؛ لأن نظام الحكم في الإسلام غير منفصل عن شرائعه الأخرى ؛ بل إن هذا هو الحال في الديانات الأخرى ، وما زال هو الذي يراه بعض اليهود وبعض النصارى الرافضين للنظام العلماني ، والذين يصفون العلمانية ـ كما

نصفها ـ بكونها ديناً محارباً لأديانهم.

الأول: نعم! إنهم ليفرضون عليهم هذا باعتباره الدستور الذي ارتضته الأغلبية، لكنهم بعد ذلك يسمحون لهم بما لا يتعلق من دينهم بأمر الحكم.

الثاني: ونحن أيضاً نسمح لهم بما ذكرت، بل إننا لنعطيهم أكثر مما تعطيهم العلمانية الديمقراطية.

الأول: لكنهم يرون أن نظام الحكم الذي تفرضونه عليهم هو دينكم وهم لا يرضون أن يُفرَض عليهم دين ليس بدينهم.

الثاني: نحن لا نفرضه عليهم بكونه ديناً بمعنى كونه عبادة يتقربون بها إلى الله، وإنما نفرضه عليهم باعتباره نظاماً للحكم ارتضته أغلبية المواطنين؛ ولا فرق في هذا بيننا وبين النظام العلماني الديمقراطي. فإذا كانوا وهم الأغلبية في البلاد الغربية العلمانية قد رضوا بأن يُقصوا دينهم عن الحكم، ويرضَوا بالعلمانية بديلاً؛ فما الذي يمنعهم ـ حيث يكونون أقلية في البلاد الإسلامية ـ من أن يرضوا بإقصاء دينهم عن الحكم والرضى بالحكم الإسلامي باعتباره اختيار الأغلبية في البلد الذي يعيشون فيه.

الأول: يبدو من كلامك هذا أنك تكاد ألاَّ ترى في الحياة العلمانية الغربية الديمقراطية أي حسنة.

الثاني: أنا لم أقل ذلك وإنما كنت أرد ظنك بأن نظامهم يفضُل النظام الإسلامي.

الأول: أفهم من ذلك أنك ترى في الحياة الغربية جوانب حسنة؟

الثاني: لا شك في ذلك. بل أرى أن في كل أمة من الأمم بعض الجوانب

الخيرة. أقول هذا ديناً؛ لأنني أعتقد أنه لا يمكن لإنسان لا خير فيه ألبتة أن يرى الخير الذي في الدين الحق فيؤمن به. وما دام هذا الدين قد جاء للناس جميعاً، فلا بد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل فيهم من الخير ما يمكِّنهم من رؤيته حقاً.

الأول: هلاَّ ذكرتَ لي بعض هذه الجوانب الخيرة!

الثاني: الحديث في هذا قد يطول؛ فلأكتف لك بذكر أحسن ما أراه عندهم. أحسن ما عندهم هو هذا التطور الكبير في العلوم الطبيعية وما بني عليه من تقنية في شتى جوانب الحياة ومنها الجانب العسكري. وقد كنت أتمنى لو أننا ركَّزنا على هذا الجانب العلمي التقني فيما نأخذه من الغرب، لكن العلمانيين في بلادنا شغلونا بمثل هذه القضايا التي كنا نتحدث عنها الآن؛ لأنهم لسذاجتهم ظنوا أن السبب الأساس لتطور الغرب هو فصله للدين عن الدولة. وقد كان هذا التركيز على الجانب الثقافي في التجربة الغربية هو السبب الأساس لضعفنا وعدم تطورنا؛ لأنه كان السبب الأساس في النزاع بيننا؛ وأنت تعلم أن الأمم لا تستطيع أن تحقق إنجازاً كبيراً دينياً أو دنيوياً وهي منقسمة على نفسها متنازعة فيما بينها. فأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجمعنا على الخير، وأن يوفقنا إلى الأخذ بأسباب النهضة والقوة والرفعة في كل جوانب حياتنا المادية والروحية.

الأول: آمين.

(٢٢)
خماة الرذيلة

(البيان ١٦٧ ـ رجب ١٤٢٢هـ ـ أكتوبر ٢٠٠١م)

يبدو أنه ما من مجتمع بشري إلا وفيه دعاة إلى نوع من الفضيلة وحماة للرذيلة، وأن حال المجتمع ومصيره رهين بغلبة أحد الفريقين. وأعني بالفضيلة أشياء مثل الصدق والعدل والأمانة والعفة وعدم الانغماس في الشهوات، والتحذير من كل ما يؤدي إلى ذلك من وسائل. هذه الأمور من الفضائل التي ركزها الله في طبيعة البشر، والتي تأتي أنوار الرسالات لتؤكدها وتشرع للناس ما يتناسب معها من عقائد وعبادات ومعاملات.

أريد أن أعطي القارئ الفاضل أمثلة من هذا لبعض ما اطلعت عليه في الغرب في الأسابيع الأخيرة من غير بحث ولا تنقيب.

قرأت قبل بضعة أسابيع مقالاً بجريدة (نيويورك تايمز) يسخر فيه صاحبه من كثير من الفضائل التي يتميز بها المجتمع السعودي، ويقول إنها تعوق فتح باب السياحة للأجانب، ويرى أن الاستفادة من هذه السياحة تتطلب التخلص من تلك الفضائل، وأن تستبدل بها الرذائل التي اعتاد عليها في بلده والتي أصبح كثير من أمثاله حتى في بلادنا يرونها ضربة لازب لكل مجتمع يريد أن يرتقي إلى مصاف الدول المتحضرة بزعمهم. يسخر من الحجاب، ومن قتل القاتل، ومن منع اختلاط الرجال بالنساء، ومن توقف العمل لأداء الصلاة. ويقول: إن فكرة تجوال امرأة شابة غير متزوجة وهي لا ترتدي إلا . . . هو مما يراه السعوديون أمراً مرعباً.

لم أعرف تلك اللبسة التي ذكرها حتىٰ سألت عنها، فإذا بها لبسة لا تغطي من جسم المرأة إلا شيئاً من صدرها، وشيئاً قليلاً مما فوق ركبتيها بكثير إلىٰ ما تحت خاصرتها! هذا الذي يراه هذا المطموس الفطرة أمراً طبيعياً، بينما يرىٰ الحجاب أمراً منكراً.

ثم قرأت بعد أسابيع من ذلك في جريدة (الواشنطن بوست) مقالاً يقول: إن تلك اللبسة صارت اليوم معروضة في كبرىٰ المحلات التجارية ضمن ألبسة طالبات المدارس حتىٰ اللائي لم يبلغن سن العاشرة! لكنه يذكر أن كثيراً من الآباء احتجوا علىٰ الدعاية لها، وأن بعض الأمهات رفضن أن يشترينها لبناتهن رغم إلحاحهن الشديد، وأن بعض مديري المدارس يفكر الآن في فرض زي معين للطالبات. فمن الذي سينجح في هذه المعركة ـ إن كانت معركة؟ أغلب ظني أنهم حماة الرذيلة.

وكنت قد ذهبت قبل أسبوعين إلىٰ لندن للمشاركة في مؤتمر عن العولمة نظمه المنتدىٰ الإسلامي. وأثناء وجودي بالفندق كنت أقرأ بعض الصحف اليومية وبعض المجلات، كما أشاهد التلفاز. فوجدت في تلك الأخبار العجب العجاب. سمعتهم يتحدثون عن برنامج عرضته إحدىٰ القنوات التجارية أثار سخط الآباء والأمهات، بل سخط بعض الوزراء والوزيرات. أتدرون عما كان البرنامج؟ كان عن المبتلين بالميل الجنسي إلىٰ الأطفال. ويبدو أنه عرضت فيه صور فاضحة وأنه سخر من الاعتراض علىٰ هذا الانحراف. لكن حماة الرذيلة وعلىٰ رأسهم المسؤول عن القناة جاء يدافع عنه ويزعم أنه لا يرىٰ فيه منافاة للأخلاق!

ثم قرأت في إحدىٰ الجرائد عن فيلم سيعرض بعد أسابيع يشاهد فيه الشعب

الإنجليزي لأول مرة الفاحشة تمارس على شاشات السينما. بل إن الدعاية له التي نشرتها الجريدة والتي رأيتها بعد ذلك معلقة في الأماكن العامة تتضمن شيئاً من ذلك المنكر. قالت إحدى الكاتبات في تلك الجريدة: هل نحن مقبلون على ممارسة الجنس في قارعة الطريق؟ وتذكرت -كما أن القارئ لا بد أن يكون قد تذكر- الحديث الذي رواه أبو يعلى عن رسول الله ﷺ وهو يتكلم عن آخر الزمان: «والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق؛ فيكون خيارهم يومئذ من يقول: لو واريتَها وراء هذا الحائط»[1].

لكن منتجي الفيلم، وكاتب القصة التي بني عليها ظهروا على شاشات التلفاز يدافعون عن هذا المنكر ولا يرون فيه شيئاً منافياً للأخلاق.

ثم قرأت بإحدى المجلات مقالاً طويلاً بعنوان: (عصر الانحطاط) ذكَّرني بكتاب جديد في تاريخ الثقافة الغربية عنوانه: (من الفجر إلى الانحطاط)، عرفت من صاحبة المقال أن ذينك البرنامجين المذكورين آنفاً كانا ضمن سلسلة من المنكرات التي توالت في مدى بضعة أسابيع بتلك البلاد، منها اعتراف أحد الكبار بأنه أقسم أمام القضاء كاذباً، واعتراف بعض المتزوجين لوسائل الإعلام بأنهم زنوا، ومنها كثرة العلاقات الجنسية بين أقرب المحارم. لكن هذا الكلام لم يعجب إحدى حاميات الرذيلة فكتبت في إحدى جرائد التابلويد تسخر من الكاتبة ومن المجلة التي نشرت المقال. وكان مما قالته: إن زنا المتزوجين ليس بالخطيئة الجديدة؛ فلا يعد معياراً لانحطاط الأمم. أقول: نعم! إنه ليس بالخطيئة الجديدة؛ بل قد يحدث في أكثر المجتمعات عفة. لكن هناك فرق بين أن يكون حوادث شاذة

(١) مسند أبي يعلى، رقم ٦١٨٣، الفردوس بمأثور الخطاب، رقم ٧٠٤٤.

متناثرة، وبين أن تعم به البلوىٰ فيكون سمة للمجتمع. وأقول للكاتبة: ما رأيها فيما نشرته الجرائد عن مسرحية ظهر فيها أحد الممثلين عرياناً أمام الجمهور، ثم أعطاهم قفاه و . . . تخيلوا ماذا؟ تغوط! أترىٰ هذا أيضاً لا يدل علىٰ الانحطاط حتىٰ في الأذواق؟

إن الإجرام دركات؛ ففرق بين أن يرتكب الإنسان جرماً محصوراً في نفسه، وبين أن يتباهىٰ به ويعلنه علىٰ الناس، ثم بين هذا وبين من يدعو إليه ويسعىٰ للدفاع عنه وحماية مرتكبيه. هؤلاء هم شرار الخلق وهم سبب انحطاط الأمم وهلاكها. وقد أعطانا ربنا صورة واضحة عنهم لنسعىٰ جاهدين لقمعهم ودفع باطلهم. تعلمنا من كتاب ربنا أن بعض الناس لا يفعل الغواية فحسب، بل يحبها ويكره الهداية. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وأن بعض الناس لا يرتكب الفاحشة فحسب بل يحب لها أن تنتشر ولا سيما بين الصالحين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور: ١٩]، وأن بعض الناس يحب الكفر والفسوق والعصيان إلىٰ درجة تجعله مستعداً لأن يبذل كل ما في وسعه للدفاع عنها بالحجة والمال، بل بالنفس وكل رخيص وغال.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿الَّذين آمنُوا يُقاتلُون في سبيل اللَّه والَّذين كفرُوا يُقاتلُون في سبيلِ الطَّاغُوت فقاتلُوا أُولياء الشَّيْطان إنَّ كيْد الشَّيْطان كان ضعيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وأنت ترى في هذه الآيات الكريمة وغيرها كيف أن الله ـ تعالى ـ لا يكتفي بإخبارنا عن باطلهم، بل يحثنا على مدافعته وتغييره. فعلى المؤمنين بالحق أن لا يقفوا عند حدود الاستمساك السلبي به، بل أن يكونوا متعاونين في الدعوة إليه، والدفاع عنه، والسعي لقمع أعدائه بالحجة والبرهان، وبذل النفس والنفيس. ﴿والَّذين كفرُوا بعْضُهُمْ أوْلياءُ بعْضٍ إلاَّ تفْعلُوهُ تكُن فتْنةٌ في الأَرْض وفسادٌ كبيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. إن حماة الرذيلة لا يقفون عند حد الدفاع عنها، بل يسعون لمحو معالم كل فضيلة مضادة لها. لكن الذي يمنعهم من ذلك هم جنود الحق المدافعون عنه الباذلون الجهد لإعلاء كلمة الله.

﴿ولوْلا دفْعُ اللَّه النَّاس بعْضهُم ببعْضٍ لَّفسدت الأَرْضُ ولكنَّ اللَّه ذُو فضْلٍ على الْعالمين﴾ [البقرة: ٢٥١].

(٢٣)
لا تحسبوه شراً لكم!

(البيان ١٦٨ ـ شعبان ١٤٢٢هـ ـ نوفمبر ٢٠٠١م)

ظلت وسائل الإعلام الأمريكي منذ سنين تربط الإسلام في أذهان الأمريكيين بالإرهاب، وقد نجحت إلى حد كبير في جعل الصورة النمطية للمسلم هي صورة الرجل الإرهابي الذي لا همَّ له إلا قتل الأبرياء من الغربيين وتحطيم حضارتهم. ثم جاءت حوادث يوم الثلاثاء ١١/ ٩/ ٢٠٠١م لتؤكد هذه الصورة، وليستغلها أعداء الإسلام في داخل أمريكا وخارجها أسوأ استغلال، وليردد الجاهلون والسفهاء منهم ما يقوله أئمة الضلال أولئك. وبدأ المسلمون يشعرون بالخوف الشديد حتى إن بعض المساجد ألغت صلاة الجمعة خوفاً على أرواح المسلمين. ثم بدأ الشعور بالعداء للمسلمين يتحول إلى صورة عملية من سبٍّ وشتم وتهديدٍ وضربٍ بل وقتلٍ وتخريب. لكنني وكثيرين غيري ممن خطبوا الجمعة التي تلت الحوادث حاولنا أن نذكِّر إخواننا الذين شهدوا الصلاة ـ وكانوا أقل من العدد المعهود ـ وأن ننصحهم بالدعاء واللجأ إلى الله تعالى. وكان مما قلت كلاماً فحواه أن الله ـ تعالى ـ قد يجعل من المصائب أبواباً يأتي منها خير كثير، وذكَّرتهم بقول الله ـ تعالى ـ لرسوله والمسلمين بعد حادثة الإفك: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، وبحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ»[1].

---

(١) مسند أحمد، ٢٣٤١٢.

وقلت لهم ـ كما قلت لغيرهم قبل الخطبة وبعدها ـ: إنني أرى في هذه المصيبة فرصة كبيرة للدعوة إلى الله، وتصحيح الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأمريكان. وتذكرت أنواع كيد كثيرة فتح الله بها أبواب النصر لدينه. تذكرت وقوف الكفرة على مداخل المسجد الحرام يحذِّرون الناس من الاستماع للرسول ﷺ، فإذا الدعاية ضد الرسول ﷺ تتحول إلى دعاية له ما كان المسلمون المستضعفون ليقدروا على مثلها.

ثم قلت كلاماً فحواه أنني كما نصحت المسلمين نصيحة خاصة فأريد أن أنصح الشعب الأمريكي ولا سيما قادته نصيحة عامة. قلت لهم: إنني أريد لكم أن تعرفوا الحقائق، وأن تبحثوا بحثاً موضوعياً في ما يأخذه الناس عليكم؛ فإن أعداداً هائلة من المسلمين، وإن اختلفت مع الذين قاموا بالتفجيرات في وسائلهم إلا أنهم يشاركونهم (إن صح أنهم مسلمون) في مآخذهم عليكم.

وقلت: إنكم تفاخرون كثيراً بنظامكم الديمقراطي وبما عندكم من حرية والتزام بالقانون. لكن ينبغي أن تتذكروا أن هذا ليس هو الذي يراه الناس فيكم باعتباركم قوة عالمية. بل إنكم بهذا الاعتبار تتصرفون تصرف الحكام الدكتاتوريين المحليين. فأنتم في الداخل ديمقراطيون، وعلى الصعيد العالمي دكتاتوريون يرى الناس فيكم كثيراً من خصال الدكتاتوريات المحلية؛ ففيكم كما فيهم الصلف والغرور، فأنتم لا تكفُّون عن الفخر بأنكم أقوى دولة، وأن التاريخ البشري لم ير مثلكم. لكن القرآن يذكرنا بأن أمماً قبلكم كانت هي الأخرى أقوى من غيرها في زمانها، وأنهم قالوا كما تقولون اليوم: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [**فصلت**: ١٥] فجاءهم الرد الإلهي: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ [**فصلت**: ١٥]. وفيكم كما في الحكومات الدكتاتورية الظن بأنه بمثل هذه

القوة وبالعنف تحل كل المشكلات، وفيكم كما فيهم الاعتقاد بأن قوتكم تجعلكم فوق القانون، مع أن الواجب عليكم باعتباركم قوة عالمية أن تكونوا مثالاً يحتذىٰ في الالتزام بالقانون الدولي. وذكَّرتهم بأن العدل ليس كله أرضياً، بل هنالك عدل سماوي، وأنه إذا كان بعض الشعوب كأفغانستان لا تستطيع أن تقابل قوتكم المادية بقوة مثلها؛ فإنهم سيرفعون أيديهم إلىٰ السماء مستجيرين بمن هو أشد منكم قوة.

ثم تتالت الأحداث وما تزال تتالىٰ. زادت الاعتداءات علىٰ الأفراد من الرجال والنساء والأطفال، وعلىٰ الجماعات والمنظمات والمراكز والمساجد حتىٰ اضطر الناس لأن يغيروا مظهرهم الإسلامي، بل اضطرت بعض النساء إلىٰ خلع الحجاب، وتوقف كثير من طلاب المدارس والجامعات عن الدراسة. ولكن صاحَبَ هذا كله اهتمام بالإسلام لم تشهد له أمريكا مثيلاً في تاريخها. توزعت وسائل الإعلام كبيرها وصغيرها علىٰ مساجد أمريكا كلها تقريباً لتستمع إلىٰ ما يقوله الخطباء، (وقد علمت أن قناة CNN نشرت بعض ما ذكرت في خطبتي). ثم استمر الحديث عن الإسلام والاتصال بالمسلمين والتحذير من الاعتداء عليهم. لكن الأهم من ذلك كله هو إثارة الرغبة في نفوس الأمريكان لمعرفة المزيد عن الإسلام. فما زال الدعاة يدعون للحديث عن الإسلام في الكنائس والمدارس والجامعات، وما زالت المراكز توزع ما عندها من مواد دعوية حتىٰ نفد ما عند بعضها فهرعت تطلب المزيد.

حكىٰ لي بعض الأصدقاء أن بعض المستمعين في إحدىٰ الكنائس قالوا له: إننا لا نعرف شيئاً عن دينكم، ونقترح عليكم أن تقفوا في الشوارع توزعون مواد تعرِّف به. وحكىٰ الكثيرون من المسلمين أنه لأول مرة في تاريخهم يتصل بهم

جيرانهم ليعبِّروا لهم عن أسفهم لما حصل للمسلمين، وعن إنكارهم الشديد له.
إن المعروف أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشاراً بين الناس في هذه البلاد؛ فما يمر يوم إلا ويدخل فيه عدد منهم، يقدِّره بعضهم بأكثر من خمسين شخصاً، بل ذكر لنا أحد إخواننا الأمريكان ممن حباهم الله ـ تعالىٰ ـ بنعمة اتخاذهم وسيلة لهداية الناس إلىٰ دينه، أنه قد أسلم علىٰ يديه في هذه الأيام العصيبة أكثر من عشرين شخصاً.

لو كان للمسلمين قيادة واحدة، ولو كان أمرهم شورىٰ بينهم، لما قدم أحد منهم علىٰ عمل يعرقل سير هذا الخير؛ إذ المعروف أن الدعوة مقدمة علىٰ القتال؛ لأن القتال إنما يشرع حين يكون وسيلة لازمة لها. أما حين تتيسر بدونه، فإن عاقلاً عالماً بدينه لا يلجأ إليه، فكيف إذا كان معرقلاً لها؟

ألم يقل الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في الحديث المتفق عليه ـ وهو يعطيه راية الجهاد: «انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(١).

لكننا نرجع فنقول لإخواننا الدعاة بأمريكا: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، نقولها تفاؤلاً ورجاءً لا تحقيقاً؛ فالعلم بالعواقب عند علام الغيوب.

وهذا يقودني إلىٰ موضوع تحدثت عنه في مناسبات كثيرة خاصة وعامة، وكنت أنوي جعله موضوع مقالي لمجلة البيان هذا الشهر. وها قد شاء الله ـ تعالىٰ ـ أن يجعل هذه الحوادث أحسن مناسبة لذلك الحديث. كنت أريد أن أوجه

(١) أخرجه البخاري، رقم ٣٧٠١، مسلم، رقم ٢٤٠٦.

للمحسنين من المسلمين رجاءً ملحاً أن يبذلوا أموالهم بسخاء لتوفير الآلاف المؤلفة، إن لم تكن الملايين من ترجمة كتاب الله الكريم إلى اللغة الإنجليزية. والسبب في ذلك أننا وجدنا بالتجربة، ووجد بعض إخواننا بالدراسة العلمية أن أكثر ما يُدخِل الناس في دين الله هو قراءتهم لترجمة هذا الكتاب العزيز. ولو رحت أحدثكم عمَّا سمعت أنا وحدي عن مشاعر الرضى والطمأنينة واليقين لبعض من هداهم الله - تعالى - بالاطلاع على ترجمة تنزيل رب العالمين لطال الحديث. لكنني سأكتفي ببعض ذلك عسى أن تكون فيه لنا ذكرى، وزيادة إيمان ويقين.

فهذا شاب هو الآن في صحبتنا يحدثنا أنه قرأ كتاباً لمؤلف غير مسلم عن الأديان في العالم، وكان مما كتبه عن الإسلام ترجمة لسورة الفاتحة. يقول الشاب إنني كثيراً ما كنت أتأثر تأثراً فكرياً ببعض ما أقرأ، لكنني حين قرأت ترجمة هذه السورة شعرت بالتأثير في قلبي. ذهب الشاب يبحث عن المسلمين، فأسلم ثم انتقل من بلده إلى واشنطن ليلتحق بمعهد العلوم العربية والإسلامية ليدرس اللغة العربية، وليتعلم دينه. ومن قبله فتاة قالت: إنها لأبوين لا اهتمام لهما بالدين، لكنها عثرت في بيتها على كتاب ديني قديم أثار اهتمامها فبدأت تبحث عن الأديان، فكان مما قرأته شيئاً عن الإسلام. قالت - وهي تسكن في مدينة نائية أشبه بالقرية - إنها صحبت بعض زميلاتها في الذهاب إلى سوق خارج القرية، لم تصحبهن إلا لتبحث عن ترجمة للقرآن الكريم. عثرت على طلبتها، ثم بدأت تقرأ. تقول الفتاة إنها لم تتجاوز الآية الثانية من سورة البقرة ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢] حتى وضعت المصحف المترجم، وشهدت بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم ذهبت تسأل عن المسلمين. ثم جاءت لواشنطن لإكمال دراستها بجامعة جورج واشنطن وهي محجبة حجاباً كاملاً.

ومن قبلها شاب لأبوين كاثوليكيين كان يدرس الثانوية بمدرسة كاثوليكية، وكان مع ذلك يشهد دروساً دينية خاصة. لكن عقله لم يقبل أبداً القول بأن لله ولداً؛ لذلك قرر أن يبحث عن دين آخر. فكَّر في اليهودية لكنه لم يقتنع بها. ثم دخل الجامعة، وكان مما درسه مقرر في التاريخ شمل الشرق الأوسط، وكان من ضمن ما ذكر لهم المحاضر من المراجع القرآن الكريم. يقول إنه لم يكن قبل ذلك يظن أن هنالك ديناً يزعم أنه سماوي إلا اليهودية والنصرانية! ولم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام ألبتة؛ لكنه حينما بدأ يقرأ في الترجمة اهتدىٰ.

إن هذا الكتاب هو حقاً كلام الله تعالىٰ، يميل كل قلب مهتدٍ إلىٰ ما يناسب حاله منه. فما علينا نحن إلا أن نوفره لهم ليتناولوا منه ما يشتهون فيهتدون. لقد وجدنا بالتجربة مصداق قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة»[1]، فما من أمة إلا وفيها من لا يزال قلبه ينبض بهذه الفطرة؛ ولولا ذلك لما تحركت قلوبهم عند استقبالها للحق. إن نور الفطرة الداخلي هو الذي يستجيب لنور الوحي الخارجي ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

فالذي أقترح:

طباعة الترجمة مجردة عن الأصل القرآني؛ وذلك لسببين أولهما: أن المدعوين لا يقرؤون العربية. ثم إننا لا ندري ماذا سيفعلون به إذا ما وزعناه علىٰ نطاق واسع؛ فقد يرميه بعضهم في أماكن غير مناسبة، وقد يقرؤه بعضهم في دورة المياه كما هي عادتهم.

أن تكون الغالبية العظمىٰ منها طبعات شعبية ذات غلاف ورقي؛ لكي تقل تكلفتها ويسهل حملها وتوزيعها.

(١) أخرجه البخاري، رقم ١٣٨٥، ومسلم، رقم ٢٦٥٨.

أن توزع بكميات كبيرة على كل المساجد والمراكز بالولايات المتحدة، بل وعلى أكبر عدد من الأفراد المعروفين باهتمامهم بالدعوة.

كل هذا عمل يمكن أن يقوم به أفراد من المحسنين من غير تنسيق بينهم. لكن الوضع الأمثل أن تكون لهذا الغرض مؤسسة - حبذا لو كانت بالولايات المتحدة نفسها - تتولى هي طبع هذه المصاحف بأحجام وجَوْدات مختلفة، كما تتولى هي توزيعها على سائر المؤسسات الإسلامية وغير الإسلامية. وحبذا لو استطاعت المؤسسة أن توفر عدداً من المؤهلين للإجابة عن أسئلة من يطلعون على الترجمة ويرغبون في مزيد تفسير وتوضيح.

لكن هذه ليست دعوة لأن تحل هذه المؤسسة محل مجمع الملك فهد لطباعة القرآن، وإنما هي إضافة وتعضيد لها حتى لا يفوت عامة الناس فضل المشاركة في هذا العمل العظيم الذي تقوم به الحكومة السعودية جزاها الله كل خير. إن المجمع مهتم أساساً بطباعة المصحف الشريف نفسه، وهو عمل عظيم قد سدَّ وما يزال يسدُّ حاجة ماسة في البلاد الإسلامية ولا سيما الفقيرة منها. ثم هو مهتم بترجمة الكتاب العزيز إلى كل اللغات. أما الذي ندعو إليه فمؤسسة مختصة بالترجمة الإنجليزية.

أيها الإخوة المحسنون! إن هذا والله لعمل مبارك، وإن الثواب عليه والله لعظيم. كيف لا وقد تكون كل نسخة من ترجمة تنفق عليها سبباً في هداية إنسان إلى الإسلام. ووالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، كما أخبرنا الصادق المصدوق. وإذا كان خيراً لك من حمر النعم فهو خير لك من كل ما تملك من مال إلا مالاً تنفقه في سبيل الله. فالبدار البدار ما دامت أبواب الدعوة إلى الإسلام قد فتحت الآن على مصاريعها. والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

(٢٤)

العولمة وصراع الحضارات

(البيان ١٦٩ ـ رمضان ١٤٢٢هـ ـ نوفمبر ـ ديسمبر ٢٠٠١م)

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالصراع سنة ماضية، والصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات لا بين طبقات ولا عرقيات. فأصحاب الطبقة الواحدة، والمنتمون إلى قومية واحدة بل قبيلة واحدة قد يقتل بعضهم بعضاً إذا اختلفت معتقداتهم. على هذا تدل الآية الكريمة التي تشير إلى اعتداء أناس من قبيلة هي أشرف قبائل العرب على أناس آخرين من هذه القبيلة نفسها؛ لأنهم خالفوهم في معتقدهم. وهذا هو الذي توصل إليه دارسو الحضارات من الغربيين؛ فإنهم يكادون أن يكونوا مجمعين على أن الحضارة وإن تكونت من عناصر كثيرة إلا أن أهم عنصر فيها هو العنصر الثقافي، وأن أهم عنصر في الثقافة هو الدين. ويلاحظون أن كبرى الحضارات كانت إلى حد كبير مرتكزة على أديان. فما الحضارة؟ وما الثقافة؟ وما العولمة؟ وما علاقة الصراع بين الحضارات بها؟

الحضارة والثقافة والعولمة:

كلمات الحضارة والمدنية والثقافة والعولمة وإن كانت عربية إلا أنها جعلت في استعمالنا الحديث رموزاً تدل على المعاني والمفهومات نفسها التي تدل عليها الكلمات الغربية التي جعلناها ترجمة لها. فلننظر في تلك المعاني والمفهومات كما هي عند أهلها.

وأنسب ما نبدأ به هو الأمريكي هنتنجتون أول من أشاع تعبير صراع

الحضارات في مقال مشهور نشر في صيف عام ١٩٩٣م في مجلة Foreign Affairs بهذا العنوان، ثم نشر موسعاً في كتاب بالعنوان نفسه. ينقل هتنجتون عن عدد كبير من العلماء الغربيين تعريفهم لما أطلقنا عليه كلمة المدنية أو الحضارةcivilization، والفرق بينها وبين ما نسميه ثقافة culture؛ فما الحضارة أو المدنية وما الثقافة؟ يمكن أن نلخص مجمل أقوال من نقل عنهم هتنجتون في مفهوم الحضارة والثقافة فيما يلي:

يضع المفكرون الألمان حداً فاصلاً بين الحضارة والثقافة، فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع ومثله العليا وخاصياته الفكرية والفنية والخلقية الكبرى. لكن سائر المفكرين الغربيين خالفوا الألمان في هذا؛ فهم يرون أن الحضارة والثقافة كليهما تشيران إلى منهاج حياة أمة من الناس، وأن الحضارة إنما هي الثقافة مكبرة، وأن كليهما يشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس، وأن الدين هو أهم العناصر المكونة للحضارة، وأن الحضارة ليست متطابقة مع العرق؛ فأصحاب العرق الواحد قد ينتمون إلى حضارات مختلفة، كما أن الحضارة الواحدة -كالحضارة الإسلامية- قد تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان والأشكال. والحضارة هي أوسع وحدة ثقافية؛ فأهل قرية إيطالية مثلاً قد يتميزون ثقافياً عن قرية إيطالية أخرى لكنهم يشتركون في ثقافة إيطالية تميزهم عن أهل القرى الألمانية. والألمان والإيطاليون ينتمون إلى ثقافة أوروبية تميزهم عن الجماعات الصينية والهندية. هذا الذي يجمع الأوروبيين هو حضارتهم التي تميزهم عن الحضارات الصينية والهندية. فالحضارة هي أعلى تجمُّع ثقافي للناس، وأوسع مستوى للهوية الثقافية لهم. وليس فوق الانتماء الحضاري للناس إلا انتماؤهم إلى الجنس البشري[1].

(1) Samuel P. Hintington, The Clash of Civilizations, Simon & Schuster, 1997, pp. 41- 43.

أما العولمة فيمكن أن نقول إنها في أساسها تصيير المحلي عالمياً؛ فهي وصف لعمل مستمر تدل عليه كلمة Globalization لكنها في الوقت نفسه وصف لبعض نتائج هذا التعولم. النتيجة النهائية المثالية للتعولم أن تكون للعالم كله لغة أو لغات مشتركة، وأن تكون التجارة فيه مفتوحة ومتيسرة بين كل بلدان العالم، وأن يسود فيه نظام اقتصادي واحد، ونظام سياسي واحد، وأن تسود فيه عقيدة واحدة، وأن تكون للناس فيه قيم مشتركة في مسائل كحقوق الإنسان والعلاقة بين الجنسين، وأن يكون هنالك أدب عالمي يتذوقه الناس كلهم، وأن يسود فيه تبعاً لذلك نظام تعليمي واحد، وهكذا. وأن تكون كل هذه الأمور التي تعولمت مناسبة للناس من حيث كونهم بشراً، ومساعدة لهم على تحقيق طموحاتهم المادية والروحية، أي تكون للعالم حضارة عالمية واحدة. هذا هو الهدف النهائي المثالي، لكن العولمة قد تكون ناقصة، وقد تكون تامة من غير أن تكون مناسبة للبشر بل مفروضة عليهم لظروف طارئة.

المهتمون بقضية العولمة متفقون تقريباً على أنه وإن كانت الكلمة جديدة إلا أن ما تصفه ليس بجديد، بل يرى بعضهم أن السير نحو هذه العالمية بدأ منذ مئات السنين.

فإذا كانت هذه هي العولمة فما وسائلها التي تجعلها ممكنة وتحركها؟ يذكر بعض المؤرخين أنه كان للعولمة في الماضي سببان رئيسان هما الهجرة والغزو.

ولكن لنا أن نسأل: لماذا يهاجر الناس، ولماذا تغزو بعض البلاد بعضاً؟ إنهم يفعلون ذلك؛ لأنهم يرونه - بحسب قيمهم - في مصلحتهم المادية أو الروحية. هذا إذن هو الدافع الأول المحرك للهجرة أو الغزو أو أي نوع آخر من أنواع الاتصال بين أمة وأمة. لكن الناس إنما يقررون الهجرة إلى مكان معين أو غزو أمة معينة بحسب ما يصلهم من معلومات عنها، وبحسب إمكانية الوصول إليها.

هذان إذن عاملان آخران هما المعلومات ووسائل الانتقال؛ وهذان يعتمدان كثيراً على مستوى التقنية الذي تصل إليه الأمة المهاجرة أو الغازية أو الساعية لأي نوع آخر من أنواع العلاقات أو التأثير.

دوافع أمة لغزو أمة أخرى أو هجرة بعضهم إليها هي في غالبها دوافع اقتصادية، لكن بعضها قد يكون ثقافياً. والأمران متشابكان؛ فحتى الغازي لأسباب اقتصادية ينقل معه ثقافته وقد يفرضها على المهزومين إذا كان غازياً ذا إمكانات كبيرة، وقد يتأثر بثقافة من غزاهم، بل وقد يتبناها ويترك ثقافته، وقد يكون التأثر والتأثير متبادلاً. والمهاجر أو الغازي لأسباب ثقافية قد يستفيد فوائد اقتصادية، وقد يحدث لثقافته التي هاجر من أجلها ما يحدث للمهاجر.

كان غزو المسلمين للعالم مثالاً للغزو بدافع حضاري؛ فقد كانوا يعدون أنفسهم أصحاب رسالة موجهة للعالم كله كلفوا هم بتبليغها إليه بالوسائل السلمية ما أمكن، وإلا باللجوء إلى الحرب. حتى المسلمون الذين كانوا يهاجرون طلباً للرزق كانت مهمتهم الرسالية ماثلة أمامهم، فأثروا في البلاد التي هاجروا إليها تأثيراً كبيراً، فنقلوا إليها ـ كما نقل الغزاة قبلهم ـ دينهم ولغتهم ولم يتأثروا بهم إلا في أمور لا تتعارض مع دينهم، بل قد يكون بعضها من مقتضيات الدعوة إليه، كتعلم لغتهم.

أما المسلمون الذين يهاجرون إلى البلاد الغربية في أيامنا هذه فإنهم يفعلون ذلك لأسباب في غالبيتها العظمى اقتصادية، وتجربتهم تدل على أن الغالبية العظمى منهم تفقد هويتها الثقافية ـ لغة ومظهراً وديناً ـ وتذوب في المجتمعات الغربية. لكن أكثر ما يحتفظون به ويؤثرون به في تلك المجتمعات هو طعامهم. غير أن قلة من هؤلاء الذين هاجروا لأسباب اقتصادية كانت ـ مع القلة التي تسافر لأسباب دعوية أو دراسية ـ سبباً في قبول بعض الغربيين للإسلام، وفي انتشار

بعض المظاهر الإسلامية كالمساجد والمدارس والمكتبات والحجاب.

أما الغربيون الذين ذهبوا إلىٰ العالم الإسلامي غزاة أو لأسباب اقتصادية فإن قلة قليلة منهم هي التي تأثرت بالثقافة الإسلامية أو اعتنقت الإسلام. ولذلك كان دخول بضعة آلاف من الجنود الأمريكان في الإسلام في المدة القصيرة التي قضوها في السعودية إبان حرب الخليج أمراً ملفتاً للنظر شاذاً عن القاعدة. لكن دخول غير الغربيين المهاجرين إلىٰ العالم الإسلامي كان ولا يزال أمراً معتاداً.

أما غزو الغرب للعالم فقد كان في أساسه لأسباب اقتصادية، لكن الدافع الرسالي كان أيضاً حاضراً فيه حضوراً بيِّناً. فالغربيون كانوا يرون أن لهم رسالة هي أن يحضِّروا العالم ويجعلوه نصرانياً. وهم يرون أن حضارتهم تفوق الحضارات الأخرىٰ لما تمتاز به من عقلانية لا توجد في غيرها، وأن هذه الميزة هي التي تؤهلها لأن تكون الحضارة العالمية. يرىٰ أحد الأساتذة الأرجنتينيين أن أحسن من يعبر عن هذا الاعتقاد هو هيجل وينقل عنه قوله: «إن الروح الألمانية هي روح العالم الجديد». ويقول: إن هيجل يرىٰ أن الروح الأوروبية التي هي روح ألمانيا هي الحقيقة المطلقة التي تحقق نفسها بنفسها من غير أن تكون مدينة لأحد سواها. ويقول ـ أعني الكاتب ـ: إن هذه القضية ـ يعني قضية هيجل ـ لم تفرض نفسها علىٰ أوروبا والولايات المتحدة فحسب؛ بل علىٰ كل المجال الفكري لأطراف العالم[١]. ويقول أستاذ بجامعة ديوك الأمريكية: «إنه لأمر عجيب وإنها لحركة في غاية التعصب العنصري أن تعتقد أوروبا أن عليها منذ عام ١٥٠٠م أن تحضِّر عالماً ظلت فيه منذ قرون حضارات (مثل الحضارة الصينية

(1) Enrique Dussel "Beyond Eurocentrism: The World-System and the Limits of Modernity" in Fredrick Jameson and Masao Miyoshi, Editors, The Culture of Globalization, Duke University Press, London and Durham, 1998, pp. 3-4.

والهندية والإسلامية. . .) قبل أن تجعل من نفسها مركزاً جديداً للعالم باسم النصرانية وأوروبا زمرة من الجماعات الهمجية الصاعدة»[١]، وأحسن من عبر عن الجمع بين الدافعين الاقتصادي والحضاري هو المؤرخ الأسباني الذي سوغ ذهابه وزملاءه لغزو الجزر الهندية بقوله: «خدمة لله ولصاحب الجلالة، ولِنَقْل النور إلى أولئك الجالسين في الظلام، ولنصير أغنياء كما أن كل إنسان يريد أن يصير»[٢].

استطاعت أوروبا أن تفرض نفسها وكثيراً من جوانب حضارتها على تلك الحضارات بالغزو والاحتلال والاستعمار، ثم بوسائل الإعلام والضغوط الاقتصادية، والتهديدات العسكرية. يقول مؤرخهم المعاصر بشيء من الزهو:

«إن التغيير الذي حدث في تاريخ العالم بعد عام ١٥٠٠م لم يكن له سابقة. لم يحدث من قبل ذلك أبداً أن انتشرت حضارة واحدة في أرجاء الأرض كلها؛ فمنذ أقدم مسارح ما قبل التاريخ المشاهدة كان الميل دائماً نحو التنوع. أما الآن فإن التيار الثقافي بدأ يتحول. إن جوهر ما كان يحدث كان بادياً حتى منذ أواخر القرن الثامن عشر. فالأمم الأوروبية ـ بما فيها روسيا ـ كانت في ذلك الوقت قد ادعت لنفسها أكثر من نصف سطح الأرض، وكانت ـ بدرجات متفاوتة ـ قد سيطرت بالفعل على ما يقرب من ثلثه. ففي غرب الكرة الأرضية كانوا قد ازدرعوا جماعات مستوطنة تكفي بأعدادها الكبيرة لإنشاء مراكز حضارية جديدة؛ فقد خرجت أمة جديدة من المقاطعات البريطانية السابقة في أمريكا الشمالية، وفي الجنوب استطاع الأسبان أن يحطموا حضارتين ناضجتين ليغرسوا

---

(1) Op cit. pp. 32-33, Walter D. Mingnola, "Globalization, Civilization Processes and the Relocation of Languages Cultures".

(2) J. M. Roberts, The Penguin History of the World, Penguin Books, 1995, p.608.

حضارتهم»[١].

ثم يذكر أنه كان هنالك في ذلك التاريخ ما يقرب من عشرين ألف هولندي في جنوب أفريقيا، وأن أستراليا كانت قد بدأت تستقبل مستوطنيها الجدد. وأن الزائر الأوروبي لشرق أفريقيا وإيران والهند وأندونيسيا كان سيجد فيها أوروبيين جاؤوا ليتاجروا ثم ليرجعوا إلى بلادهم في المدى القريب أو البعيد ليستمتعوا بالأرباح التي حققوها.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الاستعمار الغربي قد شمل أفريقيا كلها، وأحكم سيطرته على شبه القارة الهندية وبقية آسيا. وفي أوائل القرن العشرين أخضع الشرق الأوسط كله - عدا تركيا - لسيطرته المباشرة، ومع نهاية عام ١٩٢٠م كانت الإمبراطورية العثمانية قد قسمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. في غضون هذا التوسع قضى الغرب قضاءً كاملاً على حضارتي (Meso american) و (Andean)، وأخضعت الحضارات الهندية والإسلامية وأخضعت أفريقيا. وتوغل في الصين وجعلت تابعة للنفوذ الغربي لمدة أربعمائة عام تمثلت العلاقة بين الحضارات في خضوع المجتمعات غير الغربية للحضارة الغربية[٢].

ذلك ما كان حتى عام ١٩٢٠م؛ فماذا حدث بعده؟ استمر الغرب في تفوقه التقني واستمر في تأثيره الكبير على كل مجتمعات العالم ولا سيما بعد الطفرة التي حدثت في تقنية الاتصالات والانتقال والتي زادت في إمكانية العولمة.

تتمثل هذه الهيمنة الغربية الآن - كما لخصها كاتب أمريكي - في أن الأمم الغربية:

---

(1) Ibid. p. 605.

(2) Huntington, op.cit. p. 51.

* تملك وتدير النظام المصرفي العالمي.

* وتسيطر على كل أنواع العملة الصعبة.

* وأنها هي الزبون العالمي الأول.

* وأنها هي التي توفر للعالم معظم بضائعه الجاهزة.

* وأنها تسيطر على أسواق الرأسمال العالمية.

* وأنها تمارس قدراً كبيراً من القيادة الأدبية في كثير من المجتمعات.

* وأن لها قدرة على التدخل العسكري العظيم.

* وأنها تسيطر على المضايق البحرية.

* وأنها تقوم بمعظم البحوث والتطوير للتقنية المتقدمة.

* وأنها المتحكمة في التعليم التقني الفائق.

* والمهيمنة على المدخل إلى الفضاء.

* وعلى صناعة الطيران.

* وعلى وسائل الاتصال العالمية.

* وعلى التقنية العالية لصناعة الأسلحة(١).

العولمة لم تكن ـ كما كان يرجى لها إذن ـ أن تسود في العالم ثقافة إنسانية تناسب كل الناس وتساعد على تعاونهم وتطورهم والاستفادة من خيرات بعضهم بعضاً. بل كادت العولمة وكاد التحديث أن يكون تغريباً بسبب هذا التفوق الغربي وعدم تسامح حضارته مع الحضارات الأخرى.

---

(1) Jeffery R. Barnet, "Exclusion as National Security Policy," Parameters, 24 (Spring1994), 54, as quoted by Huntington, op. cit. 81-

إلى متى سيستمر هذا التفوق وهذه الهيمنة الغربية؟

يرىٰ كثير من المفكرين الغربيين أنها لن تستمر طويلاً ـ علىٰ الأقل بهذا القدر الكبير. لماذا؟ هذا موضوع كبير لا يسعنا هنا إلا أن نشير إليه مجرد إشارات، فنقول:

١ ـ لأن سبب تلك القوة لم يكن لمجرد أسباب داخلية في الحضارة الغربية، وإنما كان أيضاً لظروف خارجية مواتية. أما الآن فإن ظروفاً خارجية أخرىٰ لا قِبَلَ للغرب بتغييرها جعلته يضعف ضعفاً نسبياً للازدياد النسبي في القوة الاقتصادية والتقنية لبلاد غير غربية.

٢ ـ يزداد تقديرنا لأهمية هذا الضعف النسبي للقوة المادية للدول الغربية إذا ما تذكرنا ما يقوله كثير من مفكريها بأن السبب الأساس لسيطرتها لم يكن قيماً ولا فكراً ولا ديناً وإنما كان هذه القوة. يقرر هنتنجتون هذه الحقيقة في صراحة عجيبة إذ يقول: لم يغلب الغرب العالم بتفوق في أفكاره أو قيمه أو دينه (الذي لم تعتنقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرىٰ) وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم. إن الغربيين كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبداً[1].

بيد أننا يمكن أن نستدرك علىٰ هنتنجتون ومن يرىٰ رأيه بأن الغرب وإن لم يكن في نفس الأمر متفوقاً في تلك المجالات إلا أن أهله كانوا يعتقدون فيه هذا التفوق، وأن هذا الاعتقاد الباطل كان دافعهم، مع الدوافع الاقتصادية للخروج لغزو العالم كما ذكرنا سابقاً.

٣ ـ أما الآن فإن هذا الضعف النسبي في القوة المادية للغرب يصحبه وربما

(1) Ibid. p. 51.

سبقه فتور في الدافع الرسالي؛ فحماس الغربيين لدينهم المسيحي في بداية قرنهم الواحد والعشرين لم يعد كما كان في القرن الثامن عشر، ولم يطرأ هذا الفتور في الحماس الديني بسبب التأثر بالحضارات الأخرىٰ في المكان الأول، وإنما كان في أساسه:

* بسبب دراساتهم العلمية لأصول دينهم التاريخية، تلك الدراسات التي شككت في الثبوت التاريخي لكثير من نصوصه، والتي أثبتت أن في هذه النصوص تناقضاً ومخالفة لبعض الحقائق العلمية نشأ عنه انقسامهم إلىٰ أصوليين ـ أكثرهم من العوام ـ يؤمنون بحرفية ما في كتابهم المقدس، وليبراليين يعتقدون أنه ما كل ما فيه من عند الله، وأنه تأثر بالظروف الثقافية للزمن الذي كتب فيه.

* ثم كان التطور في مجال العلوم الطبيعية سبباً آخر؛ لأن منهج هذه العلوم يقوم علىٰ عقلانية لا وجود لها في دينهم.

* ثم زاد من ضعف الإقبال علىٰ الدين أو الاهتمام به النظام السياسي العلماني الذي يفصله عن الدولة، بل وعن الحياة العامة كلها.

٤ ـ كان كثير من المفكرين الغربيين يأملون في أن يحل العلم الطبيعي محل الدين، وينجح في حل مشاكل البشرية التي عجز الدين عن حلها. لكن تجربة الحربين العالميتين العظميين، واعتمادهما علىٰ التقنية الحربية التي وفرها العلم الطبيعي أضعفت من هذا الأمل. ثم كانت كارثة هيروشيما فاقتنع كثير من المفكرين والعوام الغربيين بأن العلم الطبيعي إنما هو سلاح يعتمد حسن استعماله أو سوؤه علىٰ قيم لا تؤخذ منه هو، فلا بد أن يكون لها مصدر آخر.

٥ ـ والشيوعية ـ التي هي نتاج غربي ـ والتي تعلق بأوهامها الآلاف المؤلفة من الناس في الشرق والغرب، باءت هي الأخرىٰ بإخفاق ذريع.

٦ ـ لم يبق للغرب الآن مبدأ يتعلق به ويدافع عنه ويعتز به إلا الديمقراطية الليبرالية وما يصاحبها من نظام رأسمالي. لكن حتى هذين يجدان كثيراً من النقد والمراجعة لعدم وفائهما ببعض القيم الإنسانية، ولا سيما إنصاف الفقراء، ولما نتج عنهما من تعميق للروح الفردية وما يصحبها من مشكلات اجتماعية.

٧ـ الروح السائدة في الغرب الآن ليست روحاً متفائلة، بل إن التشاؤم قد يصل بهم إلى الحد الذي عبر عنه كاتب فرنسي أزعج ذلك الشعب وأثار تشاؤمه حين كتب يقول كما نقل عنه مؤلف إنجليزي: «إن أوروبا بدأت تدخل في عصر ظلام جديد يتميز بالأوبئة والمتسولين وانهيار المدن، وبعث الخرافة، وعودة التهديد القادم من الشرق ـ من آسيا ومن الإسلام»[1].

ولعلنا نستطيع أن نقول إنه حتى لو لم يطرأ هذا الفتور في حماس الغربيين لدينهم ولرسالتهم، فإنه ما كان لحضارتهم أن تصير حضارة عالمية إذا ما فقدت القوة المادية؛ لأنها لا تملك في نفسها مقومات العالميــة. لكن هـذا موضوع آخر لا يسعنا الدخول في تفاصيله الآن، غير أن كثيراً من هذا القصور سيتضح إذا ما أظهرنا بعض مقومات عالمية الإسلام؛ إذ بضدها تتميز الأشياء. إلى هذا نتجه الآن وبه نختم مقالنا هذا.

ما الذي يؤهل الحضارة الإسلامية لأن تكون حضارة عالمية؟

أرى أننا ينبغي أن نميز أولاً بين الإسلام والحضارة الإسلامية؛ لأنه إذا كانت الحضارة هي في جوهرها المعتقدات والقيم والتصورات المتمثلة فعلاً ـ أو قل إلى حد كبير ـ في واقع أمة من الأمم، فما كل ما جاء به الدين المنزل من عند الله متمثلاً في الأمة التــي تعلن إيمانها بــه. فالدين دينان: دين منزل من عند الله لا يتغير

(1) Ruling Brittania, pp 316 -7.

ولا يتبدل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ودين متمثل في واقع الناس يقترب من الدين المنزل أو يبتعد عنه، ولا يطابقه إلا في الرسول الذي جاء به، والذي صدق عليه قول زوجه أم المؤمنين: «كان خلقه القرآن»[١]، أما غيره فمنهم من يقرب منه قرباً شديداً، ومنهم من يبتعد عنه بعداً كبيراً وإن كان منتسباً إليه. فالحضارة الإسلامية المتمثلة في واقع المسلمين تتأهل للعالمية بقدر قربها من الدين المنزل الذي تنتسب به. فما مقومات العالمية في هذا الدين؟ إنها مقومات كثيرة وعظيمة، لكننا نكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى بعضها:

١ - أنه بينما كان الرسل من أمثال موسى وعيسى - عليهم صلوات الله وسلامه - يرسلون إلى أقوامهم خاصة فإن محمداً ﷺ أرسل إلى الناس كافة، أرسل رحمة للعالمين، وجعله الله خاتماً للنبيين. فحتى لو كان اليهود والنصارى المنتسبون إلى هذين الرسولين مستمسكين بدينهم الحق، لما جاز لهم أن يجعلوا منهما دينين عالميين بعد نزول الدين الخاتم؛ لأن الله - تعالى - إنما أرسل هذين الرسولين إلى قومهما خاصة وإلى فترة محدودة. فالمسلم المستمسك بدينه العارف بهذه الحقيقة يستبشر بالتطور الذي حدث في وسائل الاتصال والانتقال الذي جعل من العالم قرية واحدة كما يقولون. يستبشر به؛ لأنه يرى فيه تصديقاً لنبوة محمد ﷺ؛ فلا أحد غير الله - سبحانه وتعالى - كان يمكن أن يعلم أن العالم سيتقارب هذا التقارب فلا يحتاج إلا إلى رسول واحد.

٢ - أن إمكانية تقريب المسافات أمر حاضر في حس المؤمن الذي يقرأ قوله - تعالى -: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] حين يذكر كيف أن المكذبين به ﷺ ضاقت

---

(١) أخرجه مسلم، رقم ٧٤٦، وأحمد في المسند، رقم ٢٣٤٦٠، واللفظ له.

أعطانهم عن أن يروا إمكان ذلك، وحسبوا أن الممكن محصور في المألوف. ويقرأ المؤمن في كتاب ربه أن رجلاً عنده علم من الكتاب استطاع أن ينقل عرشاً بأكمله في أقل من طرفة عين من اليمن إلىٰ الشام، ثم يقرأ في كتاب ربه ما هو أعجب من ذلك أن الرسول ﷺ عُرج به إلىٰ السماء السابعة ورجع في ليلة واحدة؛ وهي مسافة لو قطعها مخلوق بسرعة الضوء لاستغرقت منه البلايين من السنين الضوئية. ويصدق المسلم قول رسوله ﷺ: «إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»(١).

٣ـ أن هذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ فهو يخاطبهم بوصفهم بشراً وضع الله في قلوبهم أساسه؛ فهو ليس بالأمر الغريب عليهم. وما أكثر الذين شعروا بهذا حين أسلموا وفاضت أعينهم مما عرفوا من الحق.

٤ـ ومما يزيد المسلم اقتناعاً بعالمية دينه أنه أثبت في الواقع أنه ليس بالدين الذي تحده ظروف جغرافية أو مناخية، أو زمانية أو ثقافية؛ فقد اعتنق هذا الدين أناس بينهم كل أنواع تلك الاختلافات، فلم يجدوا في شيء منها ما يحول بينهم وبين الإيمان به أو وجدانهم شيئاً غريباً عليهم. فالمسلمون في كل بقاع الأرض الآن أقرب إلىٰ دينهم من النصارىٰ أو اليهود لدينهم. فما زال المسلمون رغم كل تلك الظروف المختلفة يصلون الصلوات الخمس، ويصومون شهر رمضان، ويحجون إلىٰ بيت الله الحرام، ويقرؤون الكتاب المنزل علىٰ رسولهم من غير تحريف ولا تبديل.

٥ـ وإذا كان تطور العلوم الطبيعية يقف الآن حجر عثرة في طريق بعض الأديان الباطلة، فإنه يقف شاهداً علىٰ صدق هذا الدين؛ لأنه لا يجد فيه ما

---

(١) أخرجه مسلم، رقم، ٢٨٨٩.

يخالف شيئاً من حقائقه، بل يجد فيه تقريراً لبعض تلك الحقائق قبل أن يتمكن الإنسان من اكتشافها بوسائله البشرية. ولا يجد فيه مخالفة لمنهجه العقلاني التجريبي؛ إذ يجده ديناً لا يأتي بمحالات العقول، ولا ينكر ما يشهد به الحس. فإذا ما شعر الناس بأهمية الدين ـ كما يشعر بذلك كثير منهم الآن ـ وإذا ما صدهم عما عرفوه من أديان تناقضها المنطقي، أو مخالفتها للواقع المحسوس فسيجد ديناً فيه كل ما يريد من هدىً واستقامة وراحة نفسية، وهو خال من تلك النقائص. فسيكون العلم الطبيعي بإذن الله ـ تعالىٰ ـ سبباً من أسباب دخول الناس في هذا الدين على المستوىٰ العالمي.

٦ ـ والغرب وإن كان في مجموعه مهيمناً تلك الهيمنة التي ذكرناها سابقاً إلا أنه ليس شيئاً واحداً منسجماً متعاوناً، وإنما هو شعوب ودول وجماعات تختلف مصالحها ويثور التنافس والتحاسد بينها، ويرتاب بعضها من قوة بعضها ويخشىٰ من سيطرتها.

إذا كانت تلك هي بعض المقومات التي تؤهل الإسلام ليكون دين القرية العالمية، ومركز حضارتها، فإن في واقع الأمة المنتمية إليه الآن ما يعرقل سيرها بدينها نحو تلك العالمية:

١ ـ أول تلك العوائق هو كون الحضارة الغربية قد نجحت في جعل بعض المنتسبين إليه عملاء لها في داخل الأوطان الإسلامية، ومكنت لهم فيها؛ فهم الذين قسموا الأمة وجعلوها متنازعة، وشغلوها بصراعات داخلية سياسية واجتماعية، فحالوا بذلك بينها وبين أن تسعىٰ متكاتفة إلىٰ الأخذ بأسباب التقدم المادي من علم طبيعي وتقنية وإنتاج؛ لأن وحدة الأمة ـ وإن كانت كافرة ـ شرط في هذا كما تشهد بذلك تجارب اليابان والأمم الغربية.

٢ - وثانيها أن هذا النزاع كان وما يزال السبب في فقدان القدر اللازم من الحرية التي هي أيضاً شرط لذلك التقدم. لكن الغربيين الذين كانوا سبباً في فقدانها يعزون هذا الفقدان الآن إلى طبيعة العرب أو طبيعة الإسلام! وقديماً قال العربي: «رمتني بدائها وانسلَّت».

٣ - وثالثها أن كثرة كاثرة من المنتمين إلى الإسلام قد حادوا عن جوهره التوحيدي، ففقدوا بذلك الشرط الذي علق الله - تعالى - نصره لهم عليه في مثل قوله - تعالى -: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾.

[النور: ٥٥].

٤ - ورابعها أن الغرب يبالغ في خوفه من الإسلام، ويزيد في هذا التخويف أناس يبالغون في خطر البعث الإسلامي الجديد متخذين من هذا التخويف وسيلة لتحقيق مآرب لهم لا تمت إلى مصلحة الغرب في شيء؛ وأكثر من يعينهم على هذا ويعطيهم أدلة يفرحون بها أناس لا عقل لهم ينتمون إلى حركة البعث هذه يكثرون من التهديد والوعيد للغرب من غير أن تكون لهم مقدرة على تحقيق أدنى شيء منه. وبسبب هذا الخوف المَرَضي من الإسلام يبالغ الغرب في ضغطه على الدول الإسلامية والتدخل في شؤونها ليقضي على كل بادرة نهضة إسلامية تطل برأسها فيها، ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٢١].

٥ - مع كل هذا الخطر الغربي فإن بعض الدعاة عندنا يتصرفون وكأنه لا وجود للغرب نفسه؛ فلا يتتبعون أخباره ولا يهتمون بمعرفة سياساته ومخططاته، ولا يفكرون في الرد على أفكاره، وكأنهم لم يسمعوا بمثل ما قال عالم الجزيرة

الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن معرفة أحوال الكفار من أعظم أبواب الجهاد». وصار هؤلاء الدعاة ـ بسبب هذه الغفلة ـ مشغولين بمحاربة أناس هم معهم في صف البعث الإسلامي. إن نقد الخطأ ـ ولا سيما ما كان في مسائل العقيدة ـ أمر واجب وعمل عظيم؛ لكن نقد أخطاء المسلمين شيء، وجعلها الشغل الشاغل عن الخطر الداهم شيء آخر.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة